حديث الأنبياء (١١)

كليم الله موسى

عليه السلام

اسم الكتاب: كليم الله موسى عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة.

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

كليم الله موسى

عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر
بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

المقدمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب الحادي عشر من سلسلة (حديث الأنبياء)، والموسوم باسم (كليم الله موسى عليه السلام)، والذي يروي سيرة كليم الله تعالى موسى وأخيه هارون مع فرعون الطاغية وبني إسرائيل ذوي القلوب القاسية.

والحديثُ عن موسى وأخيه هارون – عليهما السلام – حديثٌ خاصٌّ ذو شجونٍ، فموسى كليم الله تعالى، الذي أرسله تعالى وأخاه

هارون إلى أطغى الطغاة فرعون الطاغية، فدعاه ونهاه، وأرشده ووعّاه، فما قَبِلَ فرعون الخبيث النصيحة حتى وقعت به الفضيحة، ثم عالج – عليه السلام – بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فتحمل وصبر حتى صار من أولي العزم من الرسل، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم الدين، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وهارون – عليه السلام – نبيٌّ كريمٌ، وقد شارك أخاه موسى في أغلب مراحل دعوة فرعون وبني إسرائيل.

وقد اجتهدتُ في هذا الكتاب أن أبرز سيرة موسى وهارون – عليهما السلام – العطرة وذلك من خلال ثلاثة فصول، حيث جاء الفصل الأوّل (موسى والطاغية فرعون) يتحدث عن ولادة موسى، وكيف أنجاه الله تعالى من كيد فرعون، وجعل مرباه في بيته، وما حدث معه من أحداث جعلته يفرّ إلى أرض مدين، ثم عودته رسولًا كريمًا مناديًا بالتوحيد والحريّة في وجه أطغى طغاة العالم فرعون الطاغية، وبعث معه هارون نبيًّا، وخُتِمَ الفصل بخبر نجاتهما وبني إسرائيل من كيده بمعجزة باهرة.

وسلّط الفصل الثاني (موسى وبنو إسرائيل) الضوء على حياة موسى الدعويّة في قومه بني إسرائيل بعد هلاك عدوّهم ووراثتهم أرضه وملكه، وكيف غرس التوحيد فيهم وسقاه من عرق جهده وكده، وعرّجتُ إلى مواقف بني إسرائيل مع نبيّيّهم موسى وهارون عليهما السلام، وشغبهم عليهما تارة، وعنادهم لهما تارة أخرى، ولجاجهم وفسقهم.

وختم الفصل بذِكْرِ قصّتي: الخَضِر عليه السلام، وقارون.

أمّا الفصل الثالث (خاتمة القصّة) فقد أبرز فضائل موسى، وذكر وفاته، ونبّه الفصل على الروايات الإسرائيليّة المنكرة الواردة في قصّة موسى وهارون محذرًا منها، وختم الفصل بقطف الفوائد الجلائل من قصّتهما عليهما وعلى نبيّنا أفضل صلاة وأتمّ تسليم.

الفصل الأوّل

موسى والطاغية فرعون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣﴾ (القصص: ١ – ٤)

موسى والطاغية فرعون

○ تمهيد:

مكّنَ اللهُ لنبيّه الكريم يوسف – عليه السلام – في أرض مصر، فاستقدم أبويه وإخوته وسائر أهله، فأقاموا في مصر قرونًا طويلة، فكثروا وزادوا، وكان ذلك منشأ الشعب الإسرائيلي في مصر.

وكان بجانب هذا الشعب الإسرائيلي الأقباط الوثنيون، وهم سكانُ مصر الأصليون، وقد عامل الأقباط الوثنيون الشعب الإسرائيلي معاملة في منتهى الإذلال والقسوة، فكانوا يستخدمونهم في الأعمال الشاقة، وألوان السخرة الإهانة، وهم سلالةُ نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام(١)، وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ، وانتهى إلى ذلك القدر، بل كان زعيم القبط وطاغيتهم فرعون يذبّح أبناءهم ويبقي نساءهم أحياء للخدمة.

قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ

---

(١) وقد ورد في الذكر الحكيم ما يدلُّ على ذلك، فقد قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ (الأعراف: ١٢٩)، فقولهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾، يدلّ على شدّة ما كان بنو إسرائيل يلاقونه من فرعون وقومه.

فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ
يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾
(القصص: ١ – ٤)

وما الذي حمل فرعون على هذا الصنيع البشع ببني إسرائيل؟

اختلفت عبارات المفسرين في تحديد هذا الحامل، ولعلَّ الأظهر هو لئلا يكثر مقاتلتهم فيبقوا في الذلّة والمهانة، قال ابن عباس: " تذكر فرعون وجلساؤُهُ ما كان وعد الله إبراهيم – عليه السلام – أن يجعل في ذرّيّته أنبياء وملوكًا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالًا معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودًا ذكرًا إلّا ذبحوه، ففعلوا ذلك." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وفي هذا الفصل الفريد سنعرف خبر موسى وهارون – عليهما السلام – العجيب مع فرعون الطاغية العنيد.

○ ولادة موسى عليه السلام:

قاسى بنو إسرائيل العذاب الأليم، وتجرّعوا مرارة تقتيل مواليدهم الذكور سنين، حتى أمر فرعون بترك الذبح عامًا دون عام، وذلك عندما شكا القبط إلى فرعون تناقص أعداد بني إسرائيل الذكور، بسبب قتل غلمانهم، فقلقوا أن يصيروا هم الذين يباشرون بأنفسهم ما كان بنو إسرائيل يقومون به، فولد هارون – عليه السلام – في العام الذي لا يذبح فيها أحد فترك، فكانت ولادته ولادة آمنة مطمئنة علانية، بينما ولد

موسي – عليه السلام – في السنة التي كانوا يذبّحون فيها المواليد؛ لذا احترزت أمُّ موسى من بداية حملها غاية الاحتراز؛ لئلا تظهر عليها أمارات الحمل، وعندما اقترب وقت وضعها، فزع قلبها، واشتدّ خوفها، فأوحى الله إليها ألّا تخافي ولا تحزني؛ لأنّ هذا المولود سيكون له شأن عظيم، وسيحفظه الله من كيد فرعون اللئيم، وسيجعله بعد ذلك من المرسلين.

وبالفعل وضعت أمُّ موسى طفلها في هذا الجوّ المحموم المملوء رعبًا وخوفًا، وُضِعَ موسى في العام الذي كان يقتل فيه كل مولود ذكر من بني إسرائيل، وُضِعَ موسى في طائفة مستضعفة مقهورة، وُضِعَ موسى في بيت امرأة لا تملك حولًا ولا قوّة، قلبها يرتجف وفرائصها ترتعد خوفًا على رضيعها.

قال الزهراني: " يعجز اللسانُ عن التعبير، والقلم عن الكتابة، في وصف حال تلك الأمّ الحنون، التي أصيبت بالذهول في تفكيرها، والخرس في لسانها، والحزن في قلبها، والخوف والرجفان في نفسها، وعلى فلذة كبدها، وعلى رضيع لا حول له ولا قوّة، أمام عدوّ طغى وتكبر وتجبّر، فأصبح لا يرى في الوجود إلّا هو، فماذا سيكون موقف تلك الأمّ الودود، المتخفية بابنها المولود، وهي في حال من الذعر القلق والوجل الشديد." (أحمد الزهراني: ١٤٢٧)

فهل يترك الله تعالى أمَّ موسى الوجلة الخائفة بمفردها تقاسي ذلك؟!

الجواب: بالطبع لا، حيث ألهمها الله الثبات، وأرشدها إلى التعامل السليم مع هذا الأمر الجلل العظيم، حيث قذف الله السكينة في قلبها، فأرضعت موسى بأمر ربّها، واتّخذتْ له تابوتًا من الخشب؛ لتضعه فيه إذا خشيت عليه من أحدٍ، بأمر الواحد الأحد.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[1] (القصص: ٧)

فبشرها الله تعالى في هذه الآية بأمرين:

الأوّل: قريبٌ، وهو أن الله تعالى سيحفظ موسى، وسيرجعه إليها؛ كي تقرّ عينها به، ويهدأ روعها.

وأمّا الثاني: بعيدٌ، وهو أنه سيكون من المرسلين.

ويا للعجب!!

كيف صدّقت أمُّ موسى ذلك؟ كيف صدقت أن النهر سينقذه؟ وهي تعلم علم اليقين المخاطر من غمرات النهر للرجل الكبير الراشد، فكيف بطفل صغير قاصر؟!

---

(١) اختلفت أقوال العلماء حول كيفية هذا الوحي إلى أمّ موسى، والأرجح أنّه كان إلهامًا، وقد اتّفق الجميع على أنّ أمّ موسى لم تكن نبيّة.

ولكن لا عجب أن تصدّق النفس المؤمنة ما وعد الله أنه سينجزه!!

فائدة لغوية: ما الفرق بين الخوف والحزن؟

الخوف: هو حالةٌ نفسيّة تعتري الإنسان، فتجعله مضطرب المشاعر لتوقعه حصول أمر مكروه له، **أمّا الحزن:** اكتئابٌ نفسيٌّ يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه، كموت عزيز ونحوه.

◎ وصف موسى:

جاءت السنّةُ الشريفةُ الصحيحةُ بوصفٍ كامل لشكل موسى – عليه السلام – حيث قال صلى الله عليه وسلم: " **حينَ أُسْرِيَ بي لقيتُ موسى عليه السلامُ، فَنَعَتَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فإذا رجلٌ، حسبتُهُ قال، مضطربٌ، رَجِلُ الرأسِ كأنه من رجالِ شَنُوءَةَ، قال: ولقيتُ عيسى، فنعتَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، إذا رَبْعَةٌ أحمرُ، كأنما خرج من ديماسٍ، يعني حمّامًا، قال: ورأيتُ إبراهيمَ صلواتُ الله عليه وسلم، وأنا أشبَهُ ولدِهِ به.**"

(رواه البخاري: (٣٤٣٧) ومسلم: (١٦٨))

ففي هذا الحديث وَصَفَ الرسول – صلى الله عليه وسلم – موسى – عليه السلام – بأنه:

رَجِلُ الرأس: ورَجِلُ أي ليس شديد الخشونة والجعودة، ولا شديد الليونة بل بينهما.

كأنه من رجال شنوءة: أي في طوله وسمرته، وشنوءة قبيلة من قبائل اليمن.

وجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **رأيتُ عيسى وموسى وإبراهيمَ، فأمّا عيسى فأحمرُ جَعْدٌ، عَريضُ الصدرِ، أمّا موسى فآدَمُ جَسيمٌ، سَبْطٌ، كأنه من رجال الزُّطِّ.**" (رواه البخاري: ٣٤٣٨)

فقد بيّن الرسول – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحديث بأن موسى: **آدم:** أي به سمرة في اللون، **جسيم:** أي طويل، **سبط:** وهو ليس في شعره انثناء بخلاف الجعد، **كأنه من رجال الزط:** أي من رجال السودان وهم قبيلة طوال الأجسام مع نحافة.

الحاصل: موسى – عليه السلام – رجلٌ طويلٌ، يميل إلى السمرة في البشرة، غير مكتنز اللحم، ليس في شعره انثناء بخلاف الجعد.

◎ موسى في النيل:

ما أن جاء أمّ موسى هذا الأمر الإلهي إلّا أن امتثلت أمر ربّها على ما فيه من صعوبة، فقذفت التابوت في النيل وبداخله فلذة كبدها، وبشفقة الأم الحانية الملهوفة طلبت من ابنتها الصغيرة أن تتبع أثره؛ لتعرف مصيره هل بقي حيًّا أم مات غرقًا وأكلته دواب النيل؟ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ (القصص: ١١) أي: " قالت أمُّ موسى لابنتِها: اتّبعي أثره حتى تعلمي خبره ومصيره، والقصّ لغة: متابعة الأثر.

وهنا يتجلّى الدورُ البطولي الأوّل الذي قامت به أختُ موسى، حيث قد شاركت أمَّها في المعاناة من قبل، ولم تكن أحسن حالًا من أمّها في هذه المعاناة الآن، فهي كأمّها بل أشدّ فتاةٌ مستضعفةٌ في وسط قوم فرعون المتجبرين، قليلة الخبرة وحديثة السنّ، ورغم كل ذلك

قامت بدورها البطولي المطلوب منها على أكمل وجه، لله درّها حرّة كريمة!!

فقد تغلبت على مخاوفها، وتحايلت على القوم الجبارين لتتعرف على مصير أخيها، وذلك كله بتوفيق الله وتأييده، فها هي تستجيب لأمر أمّها، فقامت برحلة مراقبة ومتابعة محفوفة بالمخاطر والمحاذير؛ لتطمئن على أخيها الرضيع أوّلًا، ثم للتعرف على خبره ثانيًا، وبالفعل ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾[1] (القصص: ١١) أي تتبعته عن بعد، وكأنها مارةٌ لا تطلبه وغير مهتمة بأمره؛ لئلا يُعرف نسب هذا الرضيع، فلو شعروا أن هذه البنت أخته، وأنها تراقبه وتتابع أخباره، لما سلمت منهم، وبالتأكيد سينفذون فيه وفيها حكم الإعدام، خاصّة أنها من بني إسرائيل؛ لذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ١١) أي: لم يفطن آل فرعون أنَّها أخته وتراقبه وتتبع أخباره، وأن هذا الرضيع من بني إسرائيل.

○ حزن أمّ موسى على فراق رضيعها:

لم تفجعْ أمُّ موسى في حياتها كفجعتها بفقدِ رضيعها، وقد قال الله واصفًا تألّمها لفاجعتها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ (القصص: ١٠) أي صار قلبُها فارغًا من كل شيء من أمور الدنيا إلّا من موسى ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ (القصص: ١٠) أي لتظهر أمره وتسأل

---

(١) الفاء هي الفاء الفصيحة، والجنب: أي: الجانب.

عنه جهرة ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ (القصص: ١٠) أي: صبرناها وثبتناها، وجواب لولا محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ (القصص: ١٠) أي: لتكون من المصدقين بوعد الله تعالى أنه سيردّه إليها.

قال قطب: " والتعبير القرآني يصوّر لنا فؤاد الأمِّ المسكينة بصورة (فارغًا) لا عقل فيه، ولا قدرة على نظر أو تصريف.

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ وتذيع أمرها في الناس، وتهتف كالمجنونة: أنا ضيعته، أنا أضعتُ طفلي، أنا ألقيتُ به في اليم اتّباعًا لهاتف!

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ وشددنا عليه وثبتناها، وأمسكنا بها من الهيام والشرود.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ المؤمنين بوعد الله للصابرين على ابتلائه، السائرين على هدى." (سيد قطب: ١٩٨٦)

◎ حفظ الله تعالى موسى – عليه السلام – من كيد فرعون:

انطلق الماءُ بالتابوت، وموسى في داخله قابعًا في سكون وهدوء، يرفعه الماء مرّة ويخفضه تارة، حتى وصل به إلى قصر فرعون، وبينما الجواري يَغْتَسِلْنَ ويَسْقيْنَ أَبْصَرْنَ هذا التابوت، فأخذْنَهُ، ولم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعْنَهُ بين يدي سيدتهنَّ امرأة فرعون، فلمّا فُتح

التابوت، رأتِ امرأة فرعون وجهًا يتلألأ بأثوابٍ نبويّة وجلالة موسوية، فألقى الله محبتَه في قلبها حتى ملأ سويداءه.

ولمّا جاء زوجُها فرعونُ ورأى هذا الغلام همَّ بقتله، فاستوهبته منه، والتمست أن يتركه لها، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ (القصص: ٩) أي: هذا الطفل سيكون محلَّ السرور لعيني وعينك يا فرعون، ثم أضافت: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ (القصص: ٩) والخطاب لفرعون وجنده، وعلّلت نهيها عن قتل موسى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ (القصص: ٩) " أي: لا يخلو، إمّا أن يكون بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا بخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، ونجعله ولدًا لنا، فنكرمه ونجلّه." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢) ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (القصص: ٩) أي فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يدي هذا الرضيع، والظاهر أن هذه الجملة من كلام الله تعالى، وليس من كلام آسيا امرأة فرعون.

تصحيح: هل كانت امرأة فرعون عقيمًا؟

ذُكر أن امرأة فرعون كانت عقيمًا، وكانت لا تظنّ أن ترزق الولد، **ولكن:** الآية لا تدلُّ لا من قريب ولا من بعيد على أن امرأة العزيز كانت عقيمًا أم لا.

الحاصل: هكذا قدّر الله أن يتربّى موسى في بيت فرعون، ولا يكون مرباه إلّا في داره، ولا يتغذى إلّا بطعامه، ثم يكون هلاكه في دنياه وأخراه على يديه وبيمينه!

○ موسى في بيت فرعون:

وافق فرعونُ ممتعضًا على بقاء موسى عنده ولدًا، بينما فرحت امرأته به ابنًا، وأخذت تبحث له عن مرضع؛ لتكون له ظِئْرًا ترضعه وتربّيه، فتفاجأت برفض طفلها الصغير قبول أي حليب من المرضعات اللواتي أرسلت إليهن، وخشيت عليه من الهلاك، وحارت في أمره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (القصص: ١٢) والمراد بالتحريم هنا المنع.

ويظهر هنا الدورُ البطولي الثاني لأخت موسى، فقد بقيت في ديار آل فرعون – على ما في ذلك من خطر – تَرْقب الموقف عن كثب، فلمّا تأمّلت حالهم مع أخيها، وهم في حيرة من أمرهم وأمره، لرفضه الرضاع، عرضت عليهم – في خوفٍ ووجلٍ من أن ينكشف أمرها متظاهرة بالعمل كدلّالة على المراضع – إحضار مرضع أمينة ناصحة له وتتعهده مقابل أجر، قال تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ (القصص: ١٢) والاستفهام للتحضيض، قال السعدي: " وتدلُّ هذه الآية على جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

على كل حال يحمل تصرّف أختِ موسى هذا فطنة وذكاء لا يخفيان، لله درُّها حكيمة!!

وتأمّل – يا رعاك الله –: نكّرت أختُ موسى البيت الذي سيقوم بإرضاعه، ولم تكشف لهم عن حاله شيئًا، مع أنها زكّت أهل البيت، كأنهم معرفون بذلك، وكان ذلك منها تشجيعًا وترغيبًا لهم ليوافقوا على عرضها!!

وبالفعل وافقت امرأةُ فرعون على عرض البنت فورًا، وهنا يأتي الدور البطولي الثالث لأخت موسى، وهو تبشير أمّها بسلامة موسى من الهلاك، وعودته إليها بعد الغياب والفراق، وذلك بتعتيم أمني شديد عن عيون فرعون المنتبهة المتربصة.

وما أن وصل الخبر إلى أمّ موسى حتى جاءت على عجل ومن تأخير أو أجل؛ لرؤية رضيعها المفقود، فكانت لحظة لا توصف، امتزجت فيها مشاعرُ الأمومة الملهوفة بالشفقة الحانية بالفرح المستطير حتى كادت أن تصيح: يا بُني كم بكيتُ عليك!! كم اشتقتُ إليك!! ولكن الله ربط على قلبها لينفذَ أمرٌ كان مفعولًا.

ولمّا ضمته إلى حضنها ووضعته بين يديها إذ به يلتقم ثديها التقامًا، ويمتصه امتصاصًا، ويرتضعه ارتضاعًا لهفة وشوقًا قبل أن يكون جوعًا وظمأً!!

وعندما رأت امرأة فرعون ذلك، وهي لا تعرف الخبر، فرحت بأن وجدت ظئرًا أمينة ناصحة لطفلها، فعرضت عليها المُكوث في قصورها حيث الراحة والرفاهيّة والدعة، فاعتذرت أمّ موسى إليها متعلّلة بعدم

استطاعتها ترك بيتها وزوجها وأولادها، ثم اقترحت أمُّ موسى عليها اقتراحًا وهو أخذها موسى معها؛ لتتعهده بالعطف والرعاية، لم تتردّد امرأة فرعون في إرساله معها لِما رأته من حرص أمِّ موسى بأمر طفلها، ورتبت لها الرواتب، وأجرت عليها النفقات.

كيف حلّ لأم موسى أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها؟

قال الزمخشري: " ما كان تأخذه على أنه أجر على رضاع، ولكنه مالٌ حربيٌّ تأخذه على وجه الاستباحة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وهكذا تحقّق وعد الله، وجمع الله شمل أم موسى بابنها ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (القصص: ١٣) أي: تحقّق الوعد الإلهي بإرجاع موسى لأمه؛ كي تسعد به؛ ولتتحقق من صِدْق هذا الوعد الإلهي، ولا تكن مثل أكثر الناس الذين يشكون في تحقق وعد الله.

وقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتيتَينِ بَعدَما * * يَظُنّانِ كُلَّ الظَّنِّ أنْ لا تَلاقيا

وهكذا صار موسى ابنًا لها في نظر فرعون والناس، قال السعدي: " وتأمّل هذا اللطف، وصيانة نبيّه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمور، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه الرضاع، الذي بسببه يسميها أُمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقًا وحقًّا." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

هكذا صاغت الآيات بأبلغ أسلوب وحكاية جانبًا من حياة كليم الله موسى وهو ما زال في سنّ الرضاعة.

◎ قتل موسى القبطي وفراره إلى أرض مدين:

لمّا شبَّ موسى – عليه السلام – عن الطوق، وبلغ أشدّه[١]، صار يذكر في المجتمع الإسرائيلي على ألسنة الرجال والنساء على السواء، حيث صار عونًا ونصيرًا – بأمر الله – لبني إسرائيل، فقد خَفَّفَ عنهم كثيرًا من الأحمال والأثقال والسخرية والامتهان من المجتمع القبطي الطبقي الظالم.

هل كان موسى يفعل ذلك لأنه كان يعرف أنه إسرائيليٌّ؟

الجواب: لا، وإنما كان يفعل ذلك مراعاة لحق إرضاعه عندهم.

وفي أثناء هذه الحقبة من عمر موسى حدث معه أمر عجيب، فما هو؟!

ففي ذات يوم من الأيام تصادف دخول موسى المدينة[٢] برجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطيّ من آل فرعون، وقد اعتدى القبطيُّ على الإسرائيلي، ولمّا كان من عادة موسى رفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين فقد استغاث هذا الإسرائيلي بموسى – عليه السلام – على ذلك القبطي الظالم الأثيم، فأقبل موسى نحو القبطي، وهو يريد أن يمنعه من هذا الاعتداء الظالم، ويدفع الأذى عن

---

(١) المقصود من (بلغ أشدّه): أنَّه بلغ الحلم، وصار في عداد الرجال الأقوياء.

(٢) يذكر: كان الوقت وقت الظهيرة والأسواق قد أغلقت والناس في بيوتهم قائلون، وقيل غير ذلك، والله أعلم بالصواب.

الإسرائيلي المظلوم، فضرب موسى القبطي بجمع كفيه على صدره فخرّ ميتًا![1]

هل كان موسى قويًّا لدرجة أنه قتل القبطي بضربة واحدة؟

يُحتمل أن موسى كان على قدر عظيم من قوّة البدن لدرجة أنه قتل القبطي بضربة واحدة، ويحتمل أنه كان عادي القوّة وكان قَتْلُ القبطي بهذه الضربة ممّا قدّره الله تعالى، لكن من المؤكد أن موسى كان عظيم المروءة والنخوة، وهذه المروءة وهذه النخوة هما اللتان دفعتاه إلى الانتصار للمظلوم بدون تقاعسٍ أو تردّدٍ، بالرغم من أن هذا الظالم قبطي من سادات البلد!

وهكذا وجد موسى نفسه أمام قبطيّ ممدداً بلا روح، فامتلأ قلبه – عليه السلام – غمًّا وندمًا، وقال في نفسه: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ (القصص: ١٥) أي: " هذا من إغواء الشيطان، فهو الذي هَيَّجَ غضبي حتى ضربتُ هذا." (محمّد الصابوني) ﴿إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾ (القصص: ١٥) أي: إن الشيطان هو العدوُّ اللدود لبني آدم لإضلالهم عن الصراط المستقيم.

(١) موسى – عليه السلام – لمّا قتل القبطي لم يكن قد أوحي إليه بعد.

ثم تنحّى جانبًا رافعًا أيدي الضراعة لربّه قائلًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ (القصص: ١٦) فما كان من الله إلّا أن ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص: ١٦)

قال قتادة: " عرف – والله – المخرج، فاستغفر، ثم لم يزل – صلى الله عليه وسلم – يعدد ذلك على نفسه، مع علمه بأنَّه قد غفر له، حتى إنَّه يوم القيامة يقول: إنِّي قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، وإنما عَدَّهُ على نفسه ذنبًا." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وتأمّل: قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ (القصص: ١٦) فأوّل خطوات التغيير هي الاعتراف بالتقصير، لله درُّك يا موسى!! لم يمنعك مقامك العالي أنْ تعود إلى الله الغفور الرحيم!!

على كل حال: وقعت هذه الحادثة بعيدًا عن مرأى الناس وسمعهم إلّا عن ذلك الإسرائيلي، ولم يمنع من عدم مشاهدتها سوى هذا الإسرائيلي أنْ تستحوذ على موسى مشاعر الخوف والهلع، لا سيما أنّ القبط سيصعقون عندما يعلمون بمقتل أحدهما، وبالتأكيد سينقبون عن قاتله، فسهر ليلة عصيبة، وما أنْ طلع الصبح حتى أسرع يتجوّل في المدينة يترقب الخبر، ويفكر كيف الخلاصُ والمفرُّ؟

وشاء الله تعالى أنْ ينكشفَ أمر موسى لفرعون وجنوده بطريقة عرضيّة عجيبة، حيث لم يتعبوا في استقصاء الخبر والأمر، بل جاءهم الخبر دون عناء أو نظر.

وإليك كيف عرف القبط أن موسى هو قاتل القبطي:

ففي أثناء تجوّل موسى في المدينة مترقبًا، وإذ بنفس الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يصرخ به اليوم، ويستغيثه على قبطي آخر قد قاتله، فأقبل موسى على هذا الإسرائيلي معنّفًا، وهو يقول له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص: ١٨) بسبب كثرة شرّك ومخاصمتك، وهم أنْ يبطش بالقبطي الذي هو عدوّ له وللإسرائيلي.

ظنَّ الإسرائيليُّ أنّ موسى يريد أنْ يبطش به، فقال مدافعًا عن نفسه حسب ظنّه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾[1] (القصص: ١٩)

فانكشف المستورُ، ووقع المحظورُ، وفشا الأمرُ، وانتشر الخبرُ.

قال ابن كثير: " وهذا لم يذكر كثيرٌ من الناس سواه، ويحتمل أنَّ قائل هذا الكلام هو القبطيُّ، وأنَّه لمّا رآه مقبلًا إليه خافه، ورأى من سجيته انتصارًا جديدًا للإسرائيلي، فقال: ما قال من باب الظنّ والفِراسة، إنَّ هذا لعلَّه قاتل ذلك القتيل بالأمس، أو لعلَّه فهم من كلام

---

(١) لمّا كان من فعل الجبابرة قتل النفوس ظلمًا بغير حقّ، ذكر الإسرائيلي هذه الصفة دون غيرها في هذا الموضع.

الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دلَّه على هذا، والله أعلم." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

الــحاصل: بلغ فرعونُ أنّ قـاتل القبطي بالأمس هـو موسى، وهذا سابقةٌ خطيرةٌ، ولا بدَّ من التعامل معها بحزم وصرامة، فأرسل جنده في طلبه والقبض عليه وإحضاره.

◎ وما يعلم جنود ربك إلّا هو:

لمّا بدأت شرطةُ فرعون في بثّ العيون لرصد مكان موسى والقبض عليه، هَيَّأَ اللهُ لموسى أسبابًا ليست في مقدور البشر، حيث هيّأ لموسى جنديًّا من جنوده، يمحضه النصح، ويرشده إلى الخلاص ممّا هو فيه.

فسبقهم إلى موسى رجل ناصح أمين يقول له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ (القصص: ٢٠) أي: رؤساء القوم يأتمرون (يتشاورون) في شأنك(١)، وقد قرّروا إعدامك! فاخرج واهرب من هذه البلدة الظالم أهلها على وجه السرعة، إنّي لك من الناصحين الصادقين فيما أخبرتك به.

قال الزهراني: " إنّ موسى – عليه السلام – كان يعيش حالة من الكرب من تربص أعدائه به، ومتابعتهم له، وبحثهم عنه، وليس له من يعينه بالرأي والمشورة، وهو فرد أعزل من كل شيء، فيأتي ذلك الرجل

---

(١) سُمي التشاور بين الناس ائتمارًا؛ لأنّ كلًا من المتشاورين يأمر الآخر، ويأتمر بأمره.

من مكان بعيد (من أقصى المدينة) بعد أنّ علم بخبر القوم، وأنهم يبحثون عن موسى – عليه السلام – من أجل القضاء عليه، فينطلق مسرعًا تجاه موسى يخبره الخبر." (أحمد الزهراني: ١٤٢٧)

وتطرح تساؤلات عدّة حول هذا الرجل، منها:

ما العلاقة التي كانت بين هذا الرجل وبين موسى؟ وهل كان هذا الرجل من المؤمنين بموسى؟ وهل كان إسرائيليًّا أم هل كان قبطيًّا؟ ومن أين علم بمكان موسى؟ وكيف استطاع أنْ يصل إلى موسى وعيون فرعون في كل مكان؟

وغيرها من الأسئلة التي نعجز أن نجد لها جوابًا قاطعًا.

لكننا لا نحتار في أنْ فعل هذا الرجل البطولي العظيم كان من الأسباب التي هيّأها الله تعالى لحفظ عباده المؤمنين، ودفع الشرور عنهم؛ ليكونوا سالمين غانمين، وقد قام ذلك الرجل بدور الرجال في وقت عزّ فيه الرجال!!

◎ موسى في أرض مدين:

سمع موسى هذه النصيحة المخلصة المشفقة فوقعت على قلبه بردًا وسلامًا، ونفّست عنه كربة وهمًّا وحيرة من أمره.

وبالفعل استجاب موسى لتلك النصيحة فخرج – عليه السلام – بمفرده من وطنه، فارًّا بنفسه، مذعورًا من فرعون وملئه، مسيطرة عليه الهواجس، متلفتًا يمنة ويسرة خشية أنْ يدركه أحد القبط، هائمًا على وجهه يريد أرض مدين، وهو لا يدري كيف يصل إليها؟! فهو لم يخرج من أرض مصر قبل ذلك ألبتة، فسلك طريقًا عشوائيًا، سلكه وهو ليس

له به علم إلّا حسن ظنّه بربّه، فقال: عسى أنْ تكون هذه الطريق توصلني إلى مدين، ووقع له ما تمنّى ورجا، وأوصله الله إلى مدين بعد رحلة شاقة مضنية، قال عنها ابن عباس: " سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلّا البقل وورق الشجر، كان حافيًا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس في الظلّ، وهو صفوة الله من خلقه، وإنَّ بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإنَّ خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شقّ تمرة." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وما أنْ وطئت قدماه أرض مديـن حتى أحسّ بالطمأنينة، وأثناء أخذه قسطًا من الراحة، من بعد وعثاء سفره الشاقّ إذ به يبصر جماعة من الرعاء يسقون مواشيهم.

وقد كان منظر الرعاء مثيرًا وجذّابًا، حيث رأى الرعاء وهم يمسكون الدلاء وهي في أشطانها خالية وملآى من الماء، رآهم وهم يرجزون، رآهم وهم يستقون وينزعون دلاءهم!

وأكثر ما جذب انتباه موسى في هذا المنظر الخلاب المثير فتاتان واقفتان لا تسقيان مواشيهما، بل وتمنعانهم لئلا تختلط بماشية الناس[١].

(١) لم يحدد النصّ القرآني ما كان المسقيُّ، أغنمًا كان أم إبلًا أم غير ذلك؟ لذا الصواب التوقف في تحديد المسقي.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾[1]

(القصص: ٢٣)

تعجب من أمرهما، فبادر بسؤالهما عن سبب تعهدهما لرعي الماشية بأنفسهما، فأخبرتاه بأنَّ أباهما رجلٌ كبيرُ السنّ، لا يستطيع لضعفه أنْ يباشر بنفسه أمر ماشيته، وليس له أولادٌ ذكورٌ، وأنَّ عادتهما التأنّي حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى، حينئذ تذودان.

وقد قاما بهذا التصرّف لرجاحة عقلهما، وتغلب الحياء عليهما، ويحتمل أنّ أباهما هو الذي قد رسم لهما هذه الخطة أثناء السقي؛ كونه لا يستطيع أنْ يرد الماء معهما، فأرشدهما إلى التريث والبعد عن مزاحمة الرعاة حتى ينتهوا من سقي ماشيتهم، ثم تردان الماء بعدهم، فطبقتا ذلك.

فلله درّهما، وشكر الله سعيهما.

على كل حال رقَّ موسى لحالهما، وسقى لهما غير طالب أجرة، ثم جلس إلى الظلّ وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ

---

(١) **معنى (ورد) في قوله**: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ قال القرطبي: " ورود الماء، معناه بلغه؛ لا أنّه دخل فيه." (القرطبي: ٢٠٠٢)

فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤) أي: يا ربّ إنّي محتاج إلى ما أعطيتني من الخير.

يقول حبنكه: " وفي هذا الدعاء يشير موسى باستحياء إلى الزوجة إشارة خفية لا تعرف إلّا من قرينة الحال."

(عبد الرحمن حبنكه: ١٩٩٦)

رجعت الفتاتان إلى أبيهما، وهما تحملان لذلك الرجل الشهم شعورًا عجيبًا، وأخبرتا والدهما بما وقع من أمره معهما، وربما سمعتا مناجاته لربّه، ونقلتا تلك المناجاة إلى أبيهما، عندئذ طلب أبوهما من إحداهما أنْ تذهب إليه وتدعوه لمقابلته، وبالفعل نفذت البنت أمر أبيها ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ (القصص: ٢٥)، وهذا يدلّ على كرم أصلها، وحسن خلقها، فالحياءُ من الأخلاق الفاضلة، لاسيما في النساء، قال المقدم: " وكذلك حين جاءته إحداهما، كانت مِشيتها ذات حياء بالغ، حياء البنت الكريمة الحاصلة على الجانب الوفير من التربية الحسنة، والخصال الكريمة، قال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ (القصص: ٢٥) كأنما الحياء بساط، وهي تسير عليه." (محمّد المقدم: ٢٠٠٧)

وقالت بعبارة موجزة: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ (القصص: ٢٥) أي: إنّ أبي يدعوك ليكافئك على

سقيك لنا ماشيتنا، قال ابن كثير: " صرّحت له بهذا؛ لئلّا يتوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقفة وتأمّل: أرسل شعيب ابنته الشابّة الجميلة لمقابلة موسى الشاب الفتي المملوء حيويّة وفحولة وجاذبيّة، وما كان لشعيب أنْ يقدم على ذلك إلّا وهو يثق من أدب ابنته وعفّتها!

وبالفعل كانت ابنته آية في الأدب والأخلاق والعفّة، فقد جاءت تمشي، والمشي دليل على رزانتها ووقارها، خلافًا إنْ تأتي مسرعة هوجاء، أو بطيئة ذات غنج!

كما أنها جاءت على استحياء، والاستحياء أبلغ من الحياء، فالزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

وأخيرًا تحدثت بكلام موجز غير مسترسل.

لله درُّها عفيفة نظيفة شريفة!!

نعود – والعود أحمد – إلى موسى فقد وافق على تلبية هذه الدعوة، وانطلق معها لمقابلة أبيها، ولا شكَّ أن ذلك من تنفيس الكُرب العِظام عن النفس والتي كان من أعظمها مطاردة الأعداء وقلّة الناصر.

فلمّا قابل موسى هذا الشيخ الكبير، عرّف موسى نفسه له، وقصَّ عليه خبره وحكايته، فما كان من هذا الشيخ الكريم إلّا أن سرى عن موسى ما كان يقلقه، فقال له: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٢٥) فطمّأنه هذا الشيخ الحكيم: لا تخف فأنت في أرض ليس لفرعون وجنده سلطان عليها.

وما أجمل عبارة هذا الشيخ الحكيم! ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾!!

فقد صادفت مكانها، وطابقت مقتضاها، فقد كان موسى أحوج ما يكون لها في هذا الوقت بالذات، وكأني بموسى بعد سماعه هذا الكلام، قد استنار وجهه ضياءً، وانطلق لسانه شكرًا لربّ الأرض والسماء!!

بعدما طمأنَّ شعيب موسى استضافه وأكرمه، فكان هذا الموقف من شعيب موقف الرجال، الذين يحمون المظلوم الضعيف الغلبان، ويكرمون الغريب المنقطع به السبيل والمكان.

وشجعت إحدى ابنتي شعيب أباها – وهي راعيةُ الماشية – على استئجاره لرعي ماشيته ورعاية أموره، وأثنت عليه خيرًا، ووصفته بأنه قوي أمين: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦) قال أبو حيان: " وقولُها كلامٌ حكيمٌ جامعٌ لأنّه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تمَّ المقصود." (محمّد الصابوني)

ما الذي جعل ابنة شعيب تصف موسى بذلك؟

ذُكِرَ أنَّ أباها سألها غيرة: " ما أعلمك بهذا؟! فقالت: إنَّه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلّا عشرة، وأنَّه لمّا جئت معه تقدمت أمامه،

فقال: كوني من ورائي فإذا اختلفت الطريق فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وما قاله ابن كثير – رحمه الله – عن قوّة موسى وأمانته وإن كان فيه مدح لموسى بالصفات الحميدة إلّا أنَّه من الروايات الإسرائيليّة التي لا تصلح أن تكون مفسرة للقرآن؛ **ما الصوابُ إذًا؟**

الصواب: قال السعدي: " وقالت ذلك؛ لأنّها شاهدت من قوّة موسى عند السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوّته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصد بذلك وجه الله تعالى." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

لطيفة: قال ابن مسعود: " أفرس الناس ثلاثة صاحب يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ (يوسف: ٢١)، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال القرطبي: " قال ابن العربي: عجباً للمفسرين على اتّفاقهم على جلب هذا الخبر! والفراسة هي علم غريب ...، وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأنّ الصدّيق إنما ولّى عمر بالتجربة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم (والخبرة)، وليس ذلك من طريق الفراسة، وأمّا بنت شعيب فكانت معها

العلامة البيّنة ...، وأمّا أمر العزيز فيمكن أن يُجعل فراسة؛ لأنّه لم يكن معه علامة ظاهرة، والله أعلم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

على كل حال: مال شعيب إلى رأي ابنته فعرض العمل على موسى عنده[١]، قَبِلَ موسى العمل عند شعيب وكان العمل رعي الماشية، وإن تعجب فالعجب أن يقبل موسى العمل كراعٍ للماشية، وهو الذي كان يحيا حياة الأغنياء في قصور فرعون، فقد كان يركب موسى مراكب فرعون، ويلبس مثل ملابس فرعون، ويتغذى بمثل غذاء فرعون، حتى أنه كان ينادى موسى بن فرعون! فما هذا العمل بالنسبة لحياته السابقة؟!

وقد يُظنُّ أن موسى عندما قَبِلَ بهذه المهنة قبلها مكرهًا لا بطلًا، حيث لا مفرَّ من رفضها، وليس الأمر كذلك فقد كان يستطيع موسى أن يعتذر ويطلب عملًا آخر؛ لذا يظهر أن السبب الأساسي في قبول موسى هذه المهنة ما قاله الزهراني:

" إن النفس الأبية لا ترضى العيش على فتات موائد الآخرين، بل لا بدَّ أن تبحث عن وسيلة تكدح من خلالها، وتشعر بالعزّة والاستعلاء بعيدًا عن المسألة والاستجداء، وهذا ما وقع لموسى عليه السلام، حيث عاش مع الشيخ الكبير عيشة عمل وكدح يرعى له الغنم."

(أحمد الزهراني: ١٤٢٧)

---

(١) ويدلّ تصرّف شعيب هذا على احترام رأي المرأة، والأخذ به خاصّة عندما يكون مفيدًا.

الحاصل: قبل موسى العمل كراعي ماشية عند شعيب، وأثناء فترة عمل موسى عند شعيب رأى شعيب من موسى صلاحًا وصدقًا وأمانة، فعرض عليه التزوّج من إحدى ابنتيه[1]، وكان المهر: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

(القصص: ٢٧)

فالمهرُ أن تعمل عندي ثماني سنوات، وإن أكملت عشرًا فمن نفسك، وقد أكمل موسى العشر سنوات، قال ابن عباس: " قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ رسول الله إنْ قال فعل." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال الصابوني: " ومن هنا نعلم أنّ موسى – عليه السلام – اشتغل برعاية الغنم لمدة عشر سنوات، وكانت الرعاية هي المهر الذي دفعه موسى لقاء تزوّجه بابنة شعيب، وإذا كان موسى بن عمران قد رعى الغنم فليس عيبًا على أحد من الناس أنْ يشتغل بأمثال هذه الحرف، وكيف وقد كان سيد الخلق محمّد – صلى الله عليه وسلم – يرعى الغنم، فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنَّه قال: "**ما بعثَ اللهُ نبيًّا إلّا ورعى الغنمَ، فقال أصحابُهُ:**

---

(١) يدلّ هذا الفعل من شعيب على أنَّ خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يراه مناسبًا لا يلام عليه.

وأنتَ؟ قال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريطِ لأهلِ مكةَ."[1] (محمّد الصابوني)

تساؤل: مَنْ كان هذا الشيخ؟

قد اختلف في هذا الشيخ من هو؟

فقيل: هو شعيبٌ عليه السلام، وهذا المشهور عند كثيرين، وهذا القول غير صحيح.

والصواب ما روي عن الحسن البصري: " إنّ صاحب موسى – عليه السلام – هذا، اسمه شعيبٌ، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

فالحاصل: أنَّه ليس النبي شعيبًا والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري: (٢٢٦٢)، وابن ماجه: (١٧٥٩))، والقيراط: " هو جزء من الدينار أو الدرهم." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

فائدة: ذُكر أنّ ابنة شعيب عنما قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، قد شعر هذا الشيخ الحكيم والأب الحنون بعاطفة شريفة نشأت في قلب ابنته العفيفة تجاه موسى، فعمد شعيب الأب الحكيم أنْ يحقّقَ أمنيةَ ابنته بالزواج من موسى، فعرض على موسى أنْ يُزوّجَ ابنته له.

أقول: ليس عيبًا أنْ يحقّق الآباء أمنية بناتهم في الزواج من الشخص المناسب، ولكن أحداث القصّة لا يوجد فيها ما يدلُّ على نشوء هذه العاطفة بين بنت شعيب وموسى أساسًا، فضلًا عن أن يقوم شعيب بتحقيق أمنية ابنته ثانيًا.

وأخيرًا: ما الذي رآه موسى من ابنة شعيب حتى ينفق من عمره عشر سنين وهو راعي ماشية كمهر لها؟!

بالتأكيد رأى كل أدب وخُلق وانضباط!!

◎ عودة موسى إلى موطنه مصر، وتكليم الله سبحانه وتعالى له:

مكث موسى في مدين عشرة سنوات، ثم حنَّ قلب كليم الله موسى – عليه السلام – إلى وطنه، فعزم على العودة إلى أرض مصر بأهله وولده، وقد يقال: **كيف قرّر موسى العودة لوطنه وهو مطلوب للقصاص فيها؟**

قال الزهراني: " إنّ من سنن الله تعالى في خلقه حنين الإنسان إلى وطنه، مهما كان ذلك الوطن من العنت والشقاء، وإنّ نبي الله موسى – عليه السلام – لمّا غادر وطنه بغير رضى منه أو اختيار،

وغاب عنه سنين عديدة بسبب جور الظالمين عليه، أعدَّ عدته وعاد إلى وطنه." (أحمد الزهراني: ١٤٢٧)

ويحتمل أنّه قد وقع في ظنّ موسى أنّ حادثة قتله القبطي قد ذهب أجيجها من نفس فرعون وملئه، فلن يعاقبوه على قتله القبطي بعد مرور هذه السنوات الطويلات.

الحاصل: عاد موسى إلى وطنه بعد عشرة سنوات قضاها في مدين، ولا ندري ما الذي تلقى فيها موسى؟ وماذا عمل فيها، إلّا رعيه للماشية فقط؟ وكان هذا ممّا قدّره الله سبحانه.

ويقصُّ القرآن خبر رحلة عودة موسى بمطلع بهي، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ (القصص: ٢٩) أي عندما أكمل موسى المدّة التي اشترطها شعيب سار بزوجته إلى ديار مصر[١].

وبينما موسى في طريق عودته، وكانت الليلة مظلمة وباردة تاه في الطريق، لم يهتدِ إلى سلوك الدرب الصحيح، وحاول أنْ يشعل زناده فلم يشعل شيئًا، فصار وأهله في برد قارس، وظلام دامس، وفقدان للطريق الصحيح.

(١) **تأمّل:** قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، ألا تلحظ فيه أن أهل الرجل (زوجته) هي كنزُه الحقيقيُّ الذي يجب أن يسير به الرجل أينما ذهب؟!

وأثناء هذه الحالة المزعجة إذ به يبصر نارًا في الجانب الأيمن من جبل الطور المعروف، استبشر موسى بما رأى، وقال لأهله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ (القصص: ٢٩) " وكأنّه – والله أعلم – رآها دونهم ...؛ ولا يصلح رؤيتها لكل أحد." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال القرطبي: " ولم يقل أقيموا؛ لأنّ الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ثم قال لهم: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ (القصص: ٢٩) أي: إنّي ذاهبٌ إليها لعليّ استعلم من أجده عندها عن الطريق، أو على الأقل أجد جذوة من النار لعلّكم تستدفئون بها .

واستخدام موسى كلمة **(آنست)** توحي بالحالة الشعوريّة التي كانت مسيطرة عليه آنذاك وهي القلق والخوف، فالاستئناس لا يشعر به إلّا من كان قلقًا مضطربًا، وذلك طبيعيٌّ لمن كان في محلِّه.

وقفات مع قول موسى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ (القصص: ٢٩):

الوقفة الأولى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن من حقّ الزوجة أنْ تعرف جهة ذهاب زوجها !

الوقفة الثانية: خدمة الرجل لزوجته لا تنقص من رجولته شيئًا ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾!

الوقفة الثالثة: كان موسى رجلًا جلدًا يستطيع أنْ يصبر على البرد، ولكنه تحرك رحمة بزوجته، والدليل على ذلك أنه قال: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ ولم يقل: لعلّنا نصطلي!

الوقفة الرابعة: النفوس العظيمة تلتقط كل فألٍ وسكينةٍ مهما بدت من بعيد خافتة أو ضعيفة ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾!

نعود – والعود أحمد – إلى موسى وخبر رحلة عودته العجيب لوطنه مصر الحبيب، فما أنْ اقترب موسى من النار إلّا وجدها تتأجج في شجرة خضراء من العوسج (أي: الشوك)، وكانت هذه الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (القصص: ٣٠)

فكلّمه الله تعالى في هذا الوادي المقدّس طوى، وأمره أوّلًا أنْ يخلع نعليه تعظيمًا لتلك البقعة المباركة، " وليباشر بقدمه بركة هذا الوادي."

(ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلًا: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ (طه: ١٣) أي: عِهْ واعمل به، قال الرازي: " هذا الخطاب فيه نهاية الهيبة والجلالة، فكأنه قال: لقد جاءك أمرٌ عظيمٌ هائلٌ فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفًا إليه." (محمّد الصابوني)

وبالفعل أرخى موسى له كلَّ جوارحه؛ ليسمع كلام ربّه، الذي قال له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ (طه:١٤) أي: " أنا اللهُ لا إله غيري الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا لي." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقد خُصَّتِ الصلاة بالذكر هنا بعد العبادة مع إنّها من ضمن العبادات لشرفها وفضلها.

وبيّن الله له أنّ الدنيا دار ممرٍ والآخرة دار مقرٍ، ولا بدَّ أنْ تقع ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾[1] (طه: ١٥)

ثم أرشده سبحانه إلى العمل لها، والابتعاد عمّن لا يؤمن بها: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ (طه:

(١) معنى قوله ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾: أي أكاد أخفيها عن نفسي، قال ابن جرير: " وذلك أنّ الله – تعالى ذكره – خاطب بالقرآن العرب على ما يعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم، فلمّا كان معروفًا من كلامهم أنْ يقول أحدهم إذا أراد المبالغة من الخبر عن إخفائه شيئًا هو له مسرٌّ، قد كدتُ أنْ أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدّة استراري به." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

١٦)، وفي هذه الآية إشارة بليغة للحذر من اتّباع كل داع إلى باطل وظلم، وكأنّ الله تعالى يهيئه إلى مواجهة أكبر الجهّال الطغاة فرعون الجاهل الظالم.

بهذا نُبّئ موسى في هذه الليلة المباركة، وحاز شرف التكليم الأوّل، وقد سمعه بدون ترجمان ومن وراء حجاب، ثم أراد الله إيناسه بالخطاب، وتسليحه بالآيات العظام قبل مواجهة أكبر الطغاة اللئام، فقال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ١٧) أي: " وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرض من الاستفهام: التقرير والايقاظ والتنبيه إلى ما سيبدو من عجائب صنع الله في (هذه) الخشبة اليابسة بانقلابها حية." (محمّد الصابوني)

أجاب موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٨) أي: قال موسى هذا الشيء الذي بيميني هي عصاي اعتمد عليها أثناء المشي، وقد أضافها إلى نفسه زيادة في تحقيق خصوصيتها به ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ (طه: ١٨) أي: وأخبط أغصان الشجر اليابس ليسقط ورقها، فيسهل على غنمي تناوله وأكله ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ (طه: ١٨) أي: ولي فيها مصالح ومنافع غير ذلك، عند ذلك قال الله له: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ١٩)

قال حبنكة: " في هذه الآية كلمات يمكن أن تحذف دون أن تؤثر على المعنى، فلقد كان يكفي أن يقول موسى في جواب سؤال الله: (عصاي)، دون أن يقول: (هي عصاي)، وكان من الممّكن أن يقتصر على بيان أنها عصاه، دون أن يشرح أعماله فيها بقوله: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، وكان من الممكّن أن يقول الله – عزّ وجلّ – له: (ألقها) دون أن يناديه: (يا موسى)، لكن دعا إلى بسط الكلام وإطالة الحديث رغبة من الربّ عزّ وجلّ، ورغبة التشرّف والتلذّذ بطول المحادثة من موسى عليه السلام." (عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

على كل حال: لمّا ألقاها موسى رآها حيّة عظيمة تسعى، ففرَّ هاربًا مذعورًا، وهو معذور في هربه وفزعه؛ لأنّه رأى حيّة لا مثيل لها، رأى حيّة شديدة الضخامة وفي نفس الوقت خفية الحركة كأنها جانّ، وهذا ضرب من الحيات يسمى بالجانّ والجنان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ (القصص: ٣١) أي: فلمّا رآها حيّة عظيمة تهتزّ كالجانّ هرب ولم يعقب، ومعنى (لم يعقب) أي: لم يرجع على عقبه، بل استمرّ في إدباره عنها، ويوحي التشبيه: بشدّة حركة الحيّة مع سرعتها الفائقة بالرغم من كبر حجمها.

وكان هروب موسى منها حسب الطبيعة البشريّة، حيث رأى أمرًا غريبًا، فالطبيعة البشريّة جُبِلَتْ على الخوف من الخلق كما حَدَثَ مع

أمّ موسى سابقًا، وهذا الخوف الناشئ عن الطبيعة البشريّة الناقصّة لا ينافي الإيمان أو يزيله.

ولمّا كان خوف موسى شديدًا فقد طمأنّه تعالى قائلًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ (القصص: ٣١) ما دمت في حضرتي، ثم أمره تعالى أن يُمسكها ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ (طه: ٢١) فما أن أمسكها موسى حتى عادت عصا خشبية!!

ثم زوده تعالى بالآية الثانية ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ (القصص: ٣٢) أي: ادخل يدك في جيب قميصك (والجيب: هو الفتحة التي يخرج منها الرأس) تخرج بيضاء كالثلج متلألئة نورًا وكالشمس ساطعة ضياءً من غير برص أو مرض، وإن أعادها ثانية عادت على نفس لونها الأوّل.

ثم أرشده إلى ما يزيل قلقه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ (القصص: ٣٢) أي: متى خفت ضع " جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

والمقصود بهذه الآية الكريمة: إرشاد موسى إلى ما يدخل الطمأنينة والسكون إلى قلبه، قال ابن كثير: " هذا وإن كان خاصًّا به، إلّا أنَّ بركة الإيمان به حقّ بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

ولِمَ أرى الله تعالى موسى هاتين الآيتين؟

قال ابن كثير: " وهذا أمرٌ خارقٌ عظيمٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على صدق أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون وإنَّه الفعال بالاختيار." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

ويحتمل كان ذلك كتدريب عملي له على كيفية إلقائها قبل مواجهة الطاغية فرعون، والله أعلم.

الحاصل: بعدما سلَّح الله تعالى موسى بهذه الآيات الباهرات، بيّن له دوره المهم وهو الذهاب إلى فرعون الطاغية؛ ليدعوه إلى الوحدانيّة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ (طه: ٢٤) والحكمة من إرسال موسى إلى فرعون وملئه أوّلًا أنهم إن اهتدوا اهتدى بهداهم الكثير من قومهم، وإلّا فموسى مرسلٌ لجميع أهل زمانه.

وكانت هذه الليلة إيذانًا لموسى بأنَّ الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأنَّه أمامه عمل عظيم، يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليواجه الطاغية، مستأنسًا بآيات الله التي سُلِّحَ بها ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ (الإسراء: ١٠١)

عرف موسى – عليه السلام – معرفة اليقين أنه أصبح رسول ربّ العالمين إلى فرعون وملئه خاصّة، وإلى أهل زمانه عامّة، فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ (طه: ٢٥ ــ ٢٧)

قال قطب: " لقد طلب موسى إلى ربّه أن يشرح له صدره، وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذّة، ويجعله دافعًا للحياة لا عبئًا يثقل خُطى الحياة، وطلب إلى ربّه أن ييسر له أمره، وتيسير الله للعباد هو ضمان النجاح، وإلّا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟" (سيد قطب: ١٩٨٧)

وقفة: ما أجملَ أن تحدث ربَّك بما يؤلمك!! فقد قال موسى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧﴾ (طه: ٢٥ – ٢٧)

ثم طلب موسى عونًا خارجيًا وهو أن يبعث معه هارون معينًا على تبليغ رسالته: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ (القصص: ٣٣ – ٣٤)

ولم يقل موسى – عليه السلام – ذلك هروبًا من مهمة تبليغ رسالة الله، بل قال ذلك ليمده الله الكريم المنان من قوّته ورعايته وحفظه عندما يذهب إلى هؤلاء الطغاة المتكبرين.

الحاصل: لمّا أطال موسى سؤال ربّه، وناجاه، طالبًا منه العون والنجاة، فأجابه المنان الرحيم الذي لا يرد السائلين، ولا يبطئ الإجابة عن عباده المؤمنين: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٣٦)

قال قطب: " هكذا مرّة واحدة في كلمة واحدة، فيها إجمالٌ يغني عن التفصيل، وفيها إنجازٌ لا وعد ولا تأجيل، كل ما سألته أعطيته، أعطيته فعلًا، لا تُعطاه ولا ستعطاه؟

وفيها مع الإنجاز عطف وتكريم وإيناس بندائه باسمه (يا موسى)، وأي تكريم أكبر من أن يذكر الكبير المتعال اسم عبده في العباد." (سيد قطب: ١٩٨٧)

وفصّل تعالى ما أعطاه لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (القصص: ٣٥)

> **وقفة:** تأمّل قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص: ٣٥)، ألا تلحظ فيها أن مشاعر الأخوة الصادقة الحميدة التي تنبت بين الإخوة هي من أجمل المشاعر؛ وذلك إذا ما أحسن الأبوان زرعها!

الحاصل: نُبِئَ موسى، وأُرْسِلَ إلى فرعون وملئه وأهل زمانه، ووُهِبَ من لدن الله هارون ردءًا ونبيًّا، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥٣)

وفي إرسال هارون مع موسى إشارة لطيفة إلى أن التعاون بين الناس عامّة وبين الدعاة خاصّة على تبليغ دين الله أمر مطلوب، سواء أكان هذا التعاون بشكل منهجي منظم أمْ بشكل غير منهجي ما دامت النتيجة واحدة، وإن كان التعاون المنهجي المنظم أفضل.

◎ موسى يدخل مصر:

أكمل موسى مسيره إلى مصر، بعدما تغير سبب ذهابه إليها، فبعدما كان ذاهبًا إليها زيارة وعودة، صار الآن ذاهبًا إليها إقامة ودعوة، وبظهور موسى – عليه السلام – تبدأ حلقة من حلقات النضال في سبيل الدعوة إلى الحريّة والتوحيد بطلاها موسى وهارون عليهما السلام.

فقد كلّفهما سبحانه بالذهاب إلى فرعون الطاغية: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ (طه: ٤٢) أي: اذهب أنت وأخوك هارون بمعجزاتي وهي العصا واليد، وحثَّهما تعالى على الاجتهاد في تبليغ هذه الدعوة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ (طه: ٤٢) أي: لا تفترا في دعوة فرعون، واجتهدا في دعوته اجتهادًا عظيمًا يليق بحجم ما أنتما أرسلتما به، كما ولا تفترا عن ذكر الله دائمًا، وخاصّة عند مواجهة فرعون الطاغية، وقد امتثلا – عليهما السلام – ذلك فدعوا فرعون دعوة عظيمة صادقة، وظلّ لسانهما يلهج بذكر الله بصورة دائمة ثابتة.

وأرشدهما سبحانه أن يخاطباه بألطف العبارات وأرقّ الكلمات: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1] (طه: ٤٤)

قال ابن كثير: " وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتّوه وتجبّره، وهو إذ ذاك أردأ خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن، برفق ولين، ويعاملاه معاملة مَنْ يرجو أن يتذكر أو يخشى." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقفات مع هذه الآية:

الوقفة الأولى: قال يزيد الرقاشي عن هذه الآية: " يا مَنْ يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولّاه ويناديه؟" (ابن كثير: ٢٠٠٢)

الوقفة الثانية: قال الزهراني: " لقد سبق في علم الله تعالى الأزلي أن فرعون لا يؤمن، ومع ذلك أمر عبديه ونبيّيه موسى وهارون – عليهما السلام – أنْ يذهبا إليه ويترفقا به في الحوار والنقاش لعلَّه يتذكر أو يخشى، كل ذلك من أجل أنْ يرسم طريقًا للدعوة إلى الله تعالى لمن يأتي بعدهما من إلانة القول، وترفق بالآخر، والصبر على

---

(١) جمع الله تعالى خطاب موسى وهارون بصيغة أمر الحاضر، بالرغم من أنّ هارون لم يكن حاضرًا محلَّ المناجاة، بل كان في ذلك الوقت بمصر، والسرُّ في ذلك: هو لتغليب موسى الحاضر على غيره.

المعاناة في الطريق من القريب والبعيد، والصديق والعدوّ، والأخذ بالأسباب، وعدم اليأس أو القنوط، فإنّ القلوب علمها عند الله تعالى مصرفها ويقلبها كيف يشاء." (أحمد الزهراني: ١٤٢٧)

الوقفة الثالثة: قال حبنكة: " ينبغي أنْ نفهم الترجي في الآية على معنى: اذهبا إلى فرعون راجين طامعين في أنْ يتذكر أو يخشى، إذ لو ذهبا إليه وهما يائسان من استجابته، لم تندفع أنفسهما للقيام بمهمة رسالتهما على الوجه الأمثل المطلوب منهما."

(عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

زيادة وتفصيل:

١. ما كانت ماهية هذا القول الليّن؟

قال ابن مسعود: " القول الليّن هو قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ (النازعات: ١٨ – ١٩)"

(القرطبي: ٢٠٠٢)

ويا له من قول لَيّن بالفعل لا يمكن أنْ يرفضه أي شخص لديه مسكة عقل! أيرفض المرءِ التحلي بالتزكيّة والاتّصاف بالفضائل؟!

٢. ما ماهية دعوة موسى وهارون لفرعون؟

فصّل سبحانه ماهيّة هذه الدعوة، فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ (طه: ٤٧) أي: " فقولا

إنّا رسولا ربّ العالمين أطلق سراح بني إسرائيل، ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقّة." (محمّد الصابوني)

فكانت دعوتهما لفرعون من شقّين:

الشقّ الأوّل: دعوته إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، ونفهم ذلك من قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾" فمن اعترف بالربوبيّة فقد اعترف بألوهيّة ذلك الربّ لزامًا." (أحمد الزهراني)

الشقّ الثاني: أنْ يطلق أسر بني إسرائيل ليعبدوا ربَّهم كما يشاؤون ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ (طه: ٤٧)

٣. هل قصد موسى وهارون بقولهما: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾ (طه: ٤٧) التحيّة لفرعون؟

قال المفسرون: " لم يقصدا به التحيّة؛ لأنّه ليس بابتداء الخطاب، وإنما قصدا به السلامة من عذاب الله وسخطه."

(محمّد الصابوني)

٤. هل كانت هذه الدعوة سهلة يسيرة؟

قال الزهراني: " إنّ مواجهة أهل الباطل المتمكّنين في الأرض كفرعون وغيره، لهو أمر صعب على النفس، خاصّة أنّ الله تعالى بين لهما أنه طغى؛ لأنّ الذي لا يستحي ممّن خلقه ورزقه، وبيده محياه ومماته، فإنّه من باب أولى لا يستحي من مخلوق مثله، فقد يبطش بهما، أو يسفهما، أو يسجنهما، أو يسلّط عليهما السفهاء، إنّ هذه المواقف ما غابت عن موسى وهارون." (أحمد الزهراني)

لذا لم يخفيا خوفهما من ردّة فعل هذا الطاغية، فقالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ (طه: ٤٥) أي: يبادر بعقوبتنا لكثرة إجرامه، ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ (طه: ٤٥) ويعتدي علينا بقسوة.

فطمأنّهما الحقّ سبحانه وتعالى وقال: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه: ٤٦) أي: " لا تخافا، فأنا معكما بالنصر والتأييد والمعونة، فأفهمكما ما تحاورانه به، وأرى ما تفعلان ويفعل لا يخفى علي من ذلك شيء." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

الحاصل: كثرة الآيات التي تسلّح بها موسى، وإلحاحه في الدعاء أن يساعده الله على مواجهة فرعون الطاغية، وطلبه أنْ يشرك هارون معه ردءًا ومعينًا، وحجم التطمين الذي حصل عليه موسى من ربّ السموات العلا، يُنبئك كل هذا إلى مدى ما وصل إليه طغيان هذا المجرم العاتي؛ لذا لم تكن صدفة أنْ يوصف كل متجبّر بفرعون، فقد وصف الرسول – صلى الله عليه وسلم – المتمرد العاتي أبا جهل بفرعون هذه الأمّة(١)، وصدق تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (القصص: ٤١)

---

(١) فعندما أُخبر – صلى الله عليه وسلم – بقتل أبي جهل في غزوة بدر، قال: **هذا فرعونُ هذه الأمّة.**

◎ موسى وهارون يدعوان فرعون إلى الله تعالى:

ذهب الرسولان الكريمان موسى وهارون إلى الطاغية فرعون وملئه، وبلغاهم رسالة ربّ العالمين: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٦)، قرع هذا الكلام سمع الطاغية وأسماع ملئه من حوله، فأيقن فرعون بالخطر المحدق به، فابتدر موسى قبل أنْ يكمل كلامه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣)؟!

قال حبنكة: " في هذا النصّ نلاحظ أنّ سؤال فرعون عن ربّ العالمين هو سؤال عن شرح الاسم، أي: ما معنى ربّ العالمين؟ إنّه لا يجهل معنى كلمة (ربّ)، ولا يجهل معنى كلمة (العالمين)، لكنه سأل عن الاسم المؤلف من ربّ العالمين؟" (عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

شرح له موسى معنى ربّ العالمين: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٤)

عندما سمع الطاغية ذلك التوصيف لمعنى ربّ العالمين التفت إلى الملأ من حوله، وهو يقول مستغربًا: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٥) واستغراب فرعون لتوصيف موسى السابق لمعنى ربّ العالمين؛ لأنّ موسى حصر الأرض والسماوات والملكوت كله تحت سلطان ربّ واحد، وقد كان فرعون يتصوّرُ أنّ كائنات هذا الكون يتحكم فيها عدّة أرباب، وكان فرعون يعدّ نفسه ربّ إقليم مصر.

فبادرهم موسى بالجواب: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الشعراء: ٢٦)، هنا يغضب الطاغية فيخرج من المناظرة

والمحاورة إلى السبّ والمهاترة، فقال بهذيان غرور: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ (الشعراء: ٢٧)

فدمغه موسى بآية لا تقاوم: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٨)

فيشتدُّ الغضب بالطاغية فيغرب عن الصواب، ويخرج إلى الإبراق والإرعاد قائلًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩)

فلم يبقَ لدى موسى سوى أنْ يلقي في وجهه بالآية الكبرى التي تلقمه الحجر، فقال له: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ (الشعراء: ٣٠) أي: أو لو جئتك بمعجزة شاهدة تدلّ على صدقي أنّني رسول ربّ العالمين.

لم يبدِ فرعون أي اكتراث لهذا الشيء المبين، وقال عنه مستهزئًا: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٦)

والأليق بالسياق أنْ يقول فرعون: فأتِ بها إنْ كنت من الصادقين، مباشرة، فلم قال فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٦) لأنّ " معناه إنْ كنت جئت بآية من عند الله فأتني بها." (زكريا الأنصاري :٢٠٠٣)

الحاصل: ما أن ألقاها موسى إلّا ﴿هِىَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ (الأعراف: ١٠٧)، ثم عالجهم بالآية الثانية: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٨)

أدهش موسى فرعون والحاضرين، وانتزع منهم إعجابًا، وفي نفس الوقت ملأ قلوبَهم ارتياعًا، فأراد فرعون أنْ يقلّل من شأن انتصار موسى هذا، فعمد إلى الآية التي أبهرت الجميع وأرعبتهم، فهون منها بدعوى أنّها من نفس جنس السحر الذي يقوم به السحرة أمثاله، ولكنه لم يملك إلّا أنّ يصف موسى ببلوغه الدرجة السامية في الحذق في هذا الباب، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾ (الشعراء: ٣٤)، ثم هيّج فرعون الخبيث قومه على موسى بدهاء ومكر، بأنّ استغل أمرًا محبوبًا لديهم وهو المُكْثُ معززين مكرمين في أوطانهم، فلعب على هذا الوتر الحسّاس، ورهّبهم من أنّ موسى يهدف من وراء ذلك إلى إخراجهم ممّا يحبون!! ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ (الشعراء: ٣٥)

ثم شاور فرعون قومه في أمر موسى: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ (الشعراء: ٣٥) أي: " فبأي شيء تأمروني، وبما تشيرون عليّ أنْ أصنع به؟"[١] (محمّد الصابوني)

فرعون كان مستبدًا برأيه مستخفًا بهم[٢]، ومع ذلك شاورهم خشية أنْ يتّبع قومه موسى، فنزل إلى مشاورتهم بعدما كان مستخفًا بهم مستبدًا برأيه.

ويبدو أنّ الطاغية فرعون كان يطمع أنْ يشير قومه عليه بقتل موسى وأخيه، فيستريح منهما، ويسلم له ملكه، ولكنهم أشاروا عليه بأنّ يرجئ موسى وأخاه، ولا يستعجل في أمرهما، حيث يواجههما بمثل ما رماهما به، ويواجههما بسحر مثله، ودلّوه على كيفية مواجهة موسى بأن يبثّ أجهزته البوليسيّة؛ لتجمع له أمهر السحرة من كل بقاع المملكة: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ (الأعراف: ١١١)

---

(١) العجيب أنّ الملأ من قوم فرعون كان رأيهم نفس هذا الرأي ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾ (الأعراف: ١٠٩ ــ ١١٠).

(١) استبداد فرعون برأيه يدلّ عليه قوله لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، بينما استخفافه بهم، فيظهر في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾!

استحسن الطاغية رأي بطانته السيئة، وراح يطلب المنازلة، وأخذوا يلحون في تحديد زمانها ومكانها: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (طه: ٥٨) وكلمة (موعدًا) يجوز أنْ تكون ظرف زمان، أي: حدّد وقت المنازلة وتاريخها، ويجوز أنْ تكون ظرف مكان، أي: حدّد لنا مكانًا معلومًا للمنازلة نعرفه نحن وأنت، وكلا المعنيين مقصودان، والمعنى: فلنعارضك بسحر مثل الذي جئتنا به، فعيّن لنا وقت هذه المنازلة ومكانها بحيث لا نخلف ذلك الموعد لا نحن ولا أنت.

ولِمَ ترك فرعون وملؤه لموسى تحديد زمان المنازلة ومكانها؟

لغرورهم بقوّتهم وسطوتهم، وكأنّهم متيقنون بغلبتهم وانتصارهم.

الحاصل: قبل موسى المنازلة، متأسفًا على عقولهم السخيفة الغبيّة، فقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ (يونس: ٧٧)، ولكن هذا التأسف لم يلق أي صدى عندهم، حيث قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٧٨)

ويا للعجب!! هي التهمة القديمة الجديدة لكل الطغاة المتكبرين، فقد قال قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ (المؤمنون: ٢٤)!

عندئذ تيقّن موسى من أنّه لا أمل في استجابتهم لدعوته، فحدّد لهم موعد المنازلة في ضُحى يوم الزينة[1]، كما وحدّد المكان في أوضح ساحة في المدينة، حيث قال: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ (طه: ٥٩) وقد اختار موسى يوم الزينة بالذات؛ لأنّه يومُ عيدهم، وهو أفضلُ يوم يُتوقع أنْ يحضر فيه غالبية سكان مصر قبطًا وإسرائيليين، واختار موسى – أيضًا – أنْ تكون المواجهة في ضحى هذا اليوم، وفي مكان ظاهر بيّن؛ للزيادة في الإبراز والإيضاح لبزوغ نور الحقّ المبين وأفول ظلام ليل القوم الكافرين.

هذا كان هدف موسى من المنازلة في يوم الزينة، أمّا فرعون فكبرياؤه وغروره حمله على موافقته لموسى على هذا اليوم، ليثبت للجميع إنّه الإله العظيم! وحتى لا يتجرأ أحدٌ بعد ذلك أنْ ينازعه مُلكه القديم ولو تخيّلًا، فكان الطاغية مغرورًا بقوّته وتجبره!

وبرغم غرور فرعون إلّا أنّه أخذ تحدي موسى على محمل الجدّ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾ (طه: ٦٠) أي: فنشر فرعون شرطته، تجمع له أحذق السحرة، ولم تجد شرطته عناء في جمع جمّ غفير من السحرة الحاذقين، فقد كانت بلاد مصر مملوءة بالسحرة الماهرين.

---

(١) يوم الزينة: هو يوم عيدهم، الذي يتزينون ويجتمعون فيه.

وبالفعل ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ﴾ (الشعراء: ٣٨) أي: اجتمع سحرةٌ كثيرون[١] للموعد الذي حدّده موسى – يومُ الزينة – بسرعة، فقد دلّت الفاء في (فَجُمع) على هذه السرعة، وتسلحوا بكل ما يقدرون عليه من ألوان السحر وفنونه، وقد وجد هؤلاء السحرة الفرصة سانحة؛ لكي يملوا شروطهم على فرعون، فقالوا لفرعون بلغة المحترف الذي مقصدُه الأوّل ما يحصل عليه من الأجر والعطاء: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ﴾ (الشعراء: ٤١)، فها هم يستوثقون أوّلًا من جزالة العطاء وضخامته!

شعر فرعون بهذا الابتزاز من السحرة، ولكن خطر موسى جعله يرضخ لأي شرط في سبيل هزيمة موسى وإبقاء مُلكه وسلطانه، فقال لهم: ﴿نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ (الشعراء: ٤٢) فلم يرضخ لهم وحسب، بل زادهم على ما طلبوه بأنّه سيجعلهم من جلسائه المقربين وأصحاب الحظوة لديه المتمكنين، وليكون – أيضًا – تشجيعًا لهم على إجادة المنازلة.

وهكذا اتّفق فرعون والسحرة على ذلك، وهو وهم لا يعلمون أنّ الموقف المقدمين عليه ليس موقف مهارة واحتراف وتضليل، إنما هو موقف معجزة ورسالة وغلبة دين الله المستقيم، على ما سنعرفه إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) ذكر أنّ عدد السحرة الذين جمعوا لمجابهة موسى كانوا (٧٢) ساحرًا، وهذا التحديد يظهر أنّه من الإسرائيليات؛ لذا الصواب: عدم الخوض في تحديد عددهم.

◎ حوارات موسى وفرعون:

وقبل سرد أحداث الموقعة الحاسمة بين موسى والسحرة، نورد بعضًا ممّا دار بين موسى وفرعون من حوارات ومقالات، والتي رصد منها القرآن:

قول فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾[1] (الشعراء: ١٨ ــ ١٩)

في كل حوارات فرعون مع موسى تلحظ الكبرياء والاستعلاء في نبرة فرعون، والتقليل والازدراء لموسى، وهنا يقول فرعون: أليس أنت الوليد الذي تربّى في منزلنا؟! أليس أنت الذي أحسنا إليك دهرًا؟! أليس أنت القاتل الهارب من العدالة؟! أليس أنت الكافر (أي: الجاحد) بالنعم التي أسديناها إليك؟!

فَنَّدَ موسى هذه المهاترات فبدأ بشبهة قتل القبطي، فقال: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الشعراء: ٢٠) أي: وقعت حادثة قتل القبطي خطأً، وبدون سبق إصرار أو ترصّد منّي.

ولم يذكر موسى مغفرة الله له قتل هذا القبطي؛ لأنّ فرعون لا يؤمن إلّا بشريعته، ولن يقنعه أن يقول له موسى: وأمّا قتلُ القبطي

---

(١) ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ يقصد فرعون بالفعلة هنا قتل القبطي، وقد عبّر عنها بلفظ (الفعلة) لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر.

فالله قد غفره لي، فسيقول: مَنْ هذا الله الذي غفر لك؟! تعالى الله عما يقول علوًّا كبيرًا!

إشكال: كيف قال موسى عن نفسه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والنبي لا يكون ضالًّا؟

قال الأنصاري: أراد به وأنا من الجاهلين، أو الناسين، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، أو من المخطئين لا من المتعمدين، كما يقال: ضلّ الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

ثم قال موسى: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء: ٢١) أي: ففررتُ منكم لمّا خفتكم تاركًا بلدي وأهلي، فبدّل الله تعالى محنتي إلى منحة وجعلني من المرسلين، وقد كنتم ظالمين معتدين في إجباري على ترك بلدي، لعلمكم إنَّني لم أذنب في حادثة القتل لوقوعها عرضًا بدون قصد.

ثم عمد إلى امتنان فرعون بتربيته، فقال: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء: ٢٢) أي: نعم، أنت الذي تربيتُ في داره، وتغذيتُ من طعامه، وركبتُ في مراكبه، ولكن أمام هذه النعم المسداة إليّ استعبدتَ شعبًا عظيمًا بأكمله وظلمته وقهرته، فما أنعمت به عليّ من نعم يتلاشى في مهبّ ريح ظلمك لشعبي.

وفي حوار آخر قال فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾

(طه: ٤٩ ــ ٥٣)

في هذا الحوار يستخدم فرعون دهاءه الخبيث؛ ليزعزع إيمان موسى وهارون بالله بطرح سؤال غرضه إنكار وجود الله، فقال: فمن ربُّكما يا موسى؟

يفطن موسى لمراد فرعون وخبثه، فيردّ بأنّ الله هو ربُّنا وربُّ كل شيء، وهو الذي خلق الخلق وأنت منهم، ثم قدّر الأرزاق والآجال والأعمال، وهدى كل مخلوق لما خلق، فنسف بذلك موسى ما رمى إليه فرعون، ولكن الخبيث راوغ في مربع آخر، فسأل: إن كان ربّكما كما تقولان: فَلِمَ عبد الأقدمون غيره؟! هلا اهتدت القرون الأولى إليه؟!

شبهة واهية ماكرة ولكنها خبيثة، وموسى الذي دعا ربّه أنْ يطلق لسانه بالحُجّة التامة لن تعجزه هذه الشبهة الباهتة رغم مكرها، فأجاب: نعم، أقرّ إنّه هناك من عبد غير الله، ولكن هذا ليس حجّة لك، ولا يسوغ متابعته، فإنّ هؤلاء جهلة مثلك، والله الحفيظ سجل كل ما يقترفه هؤلاء الكفرة، بل ويحصي أعمال جميع الخلائق في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، وسيجزيهم على ذلك جزاء وفاقًا.

◎ موسى والسحرة:

جاء يومُ اللقاءِ المرتقب! جاء يوم الزينة! فتجمع الناس في أكبر ساحات المدينة، وجلسوا مترقبين المواجهة بين موسى وسحرة فرعون، جلسوا في صعيدٍ واحدٍ فرادى وجماعات، بينما جلس فرعون المتغطرس منفردًا عن العامّة، وحوله زبانيته الذين جاءوا عن بكرة أبيهم، تنفيذًا لأمر طاغيتهم؛ ليشهدوا نصره المؤزّر! والتفوا حوله وهم يهتفون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ (الشعراء: ٤٠)

استبشر فرعون بهذا الجمع وهذا الهتاف، وهيهات هيهات! كذبت والله ظنّونه، وأخطأت آراؤه، فهل يعارض كذبه وبهتانه خوارق العادات التي سيجريها الديّان على يد كليمه الربحان المؤيد بالبرهان الذي يبهر الأذهان؟

ولمّا تقابل الفريقان واصطف الخصمان، ابتدر موسى بالنصح لهؤلاء السحرةِ المُغرّرِ بهم، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ (طه: ٦١) أي: لا تكذبوا على الله دجلًا، فيستأصلكم ويهلككم، وقد خسر من كذّب وتولّى.

استمع السحرة لهذه الموعظة الصادقة القويّة، ويبدو أنها قد أثرت في جزءٍ كبير منهم، ممّا جعلتهم يتناجون فيما بينهم بعيدًا عن سمع الحاضرين.

حيث قال فريق منهم: هذا نبيٌّ وليس ساحرًا، بينما قال فريق آخر: بل هو ساحرٌ، ويبدو أنهم بعد أخذ وردّ، وبعد تشاور وتناظر استقرَّ رأيُهم على إنّه ساحرٌ، وقالوا لبعضهم بعضًا تآزرًا وتشجيعًا وتأكيدًا: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ (طه: ٦٣) أي: " قالوا بعد التشاور: ما هذان إلّا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر."

(محمّد الصابوني)

وقالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ (طه: ٦٣) أي: وإنّ هدفهما من قولهما هذا هو إفساد دين آبائكم والذي أنتم عليه، والذي هو أفضل الأديان.

وقالوا أيضًا: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ (طه: ٦٤) والفاء في (فأجمعوا) هي الفاء الفصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك من موسى وهارون بحيث قد جاءا ليخرجاكم من أرضكم بسحرهما هذا، فأحكموا أمركم، ولا تنازعوا فيما بينكم، وارموه عن قوس واحدة، ثم ائتوا مكان المواجهة وأنتم مصطفون؛ ليكون ذلك أهيب في صدر موسى والحاضرين، ثم قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ (طه: ٦٤) أي: الفائز اليوم من غلب موسى، وقد قصدوا بالفلاح هنا: الجوائز والعطايا التي وعدهم بها فرعون.

الحاصل: توافق السحرة على مواجهة موسى، وسلّوا أنفسهم بالجُعْل الذي رصده لهم فرعون، وابتغاء الزلفى لديه، فقالوا متحدين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ (طه: ٦٥) أي: قال السحرة لموسى: إمّا أنْ تكون أنت البادئ بالإلقاء أو نكون نحن البادئون!

تساؤل: لِمَ خيّرت السحرة موسى بين أن يكون هو أوّل من يلقي أو هم؟

قال الزمخشري: " إنّ تخيرهم إياه أدبٌ حسنٌ راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أنْ يتخاصموا في الجدال، والمتصارعين قبل أنْ يتآخذون في الصراع. (الفخر الرازي)

وما ذكره الزمخشري محتملًا لكنه لا دليل عليه.

والأقرب: خيروه ثقة منهم أنّ الغلبة ستكون لهم؛ ولاعتقادهم أنْ لا أحدًا يستطيع مقارعتهم فضلًا عن الانتصار عليهم!

على كل حال: قابل موسى تحدي هؤلاء السحرة بثقة المؤمن المنتظر من الله وعده بالنصر والتمكين، فقال لهم: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ (طه: ٦٦) حيث ترك لهم موسى فرصة البدء، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة.

ما الحكمة من استبقى موسى لنفسه الجولة الأخيرة؟!

قال أبو السعود: " قال ذلك مقابلة للأدب بأحسن من أدبهم، حيث بتَّ القول بإلقائهم أوّلًا، وإظهارًا لعدم المبالاة بسحرهم؛ ليبرزوا ما

معهم، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى وسعهم، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه." (محمّد الصابوني)

وبالفعل ألقى السحرة حبالهم وعصّيهم أوّلًا، وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٤٤)

فلما ألقوا حبالهم وعصّيهم سحروا أعين الحاضرين، واسترهبوهم، وجاءوا بسحر عظيم حسب ما عندهم؛ لأنّه وإنْ كان كثيرًا فليس بعظيم على الحقيقة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١٦)

ما نوع السحر الذي كان يقوم به سحرة فرعون؟

السحرُ ضروبٌ وأنواعٌ، ومنه سحر التخييل والخداع:

قال الجاسم: " وهو التخيلات والأخذ بالعيون، ومبنى هذا النوع على القوّة الباصرة والتي قد ترى الشيء على خلاف ما هو عليه في الحقيقة، لبعض الأسباب العارضة؛ ولأجل هذا كانت أغلاط البصر كثيرة، ألا ترى أنّ راكب السفينة إذا نظر إلى الشطّ رأى السفينة واقفة والشطّ متحركًا، وقد كان سحر سحرة فرعون من هذا النوع، فهو تخييل وأخذ بالعيون، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ٦٦)

فإطلاق التخييل في الآية على سحرهم نصٌّ صريحٌ في ذلك، وقد دلَّ على ذلك أيضًا قوله ﴿قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ

ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف: ١١٦)؛ لأنّ إيقاع السحر على أعين الناس في الآية يدلّ على أنّ أعينهم تخيلت غير الحقيقة الواقعة، والعلم عند الله تعالى." (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

وقد ذُكر أنّ سحرة فرعون اتّخذوا عصى مجوفة مملوءة بالزئبق، وكذلك الحبال كانت من جلد محشوة زئبقًا، ويُذكر أنهم لمّا احتاجوا إلى حرارة لتحريك الزئبق – لأنَّ من شأن الزئبق إذا أصابته الحرارة أن يتمدّد فيتخيّل الناس أنّ هذه العصى والحبال تسعى – حفروا تحت موضع مواجهة موسى أسرابًا وملؤها نارًا، والأقرب أن الحرارة التي احتاجها السحرة لتحرك الزئبق هي حرارة الشمس، والله أعلم.

قال الجاسم: " ولا مانع من أنْ يتوارد نوعان على شيء واحد (الأخذ بالعيون، وملء العصى والحبال زئبقًا) فيكون داخلًا في هذا وفي هذا." (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

ما أن رأى موسى هذا السحر العظيم إلا أن امتلأ قلبه خوفًا ممّا رآه من سحر السحرة حسب الطبيعة البشريّة، فجاءه التطمينُ الإلهي ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (طه: ٦٨) أي: قال الله لموسى: لا تخف ممّا توهمت فأنت ستكون المنتصر عليهم، وقد أكد الله تعالى هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات، وهي: إنّ، وتكرير الضمير، والتعبير بالعلوّ المفيد للاستعلاء عليهم.

في هذه الساعة الحاسمة أوحى الله إليه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ (طه: ٦٩) أي: ألق العصا التي في يمينك تبتلع

سحرهم وشعوذتهم ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٩) أي: الذي تراه هذا ما هو إلّا من باب السحر لا أكثر، وهؤلاء السحرة وأمثالهم لا يسعدون في دنياهم، ولا يفوزون بمطلبهم لأنّهم كاذبون مضلّلون.

اطمأنّ موسى أنَّ أمر الله قد صار قريبًا، وأنّ نصره بات حاصلًا، فألقى عصاه قائلًا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (يونس: ٨١ – ٨٢) أي: قال لهم موسى: الذي جئتم به الآن هو السحرُ الذي طالما اتّهمتوني بتعاطيه، وسحركم هذا سيمحقه الله بإظهار بطلانه أمام الناس، وهذه سنّة الله في كونه أنّه لا يصلح عمل من يسعى بالفساد.

وما أنْ ألقى عصاه حتى ابتلعت كل إفك السحرة، قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١١٨)

وتأمّل هذه الآية: ففيها تصويرٌ بديعٌ، حيث جسّم الله هذا الحقَّ الذي كان عليه موسى واستقراره له، حتى كأنّه شيء ذو ثقل ينزل على شيء آخر باطل خفيف الوزن، فمحاه وأزاله من الوجود!

وهكذا أذهل المشهد الجميع لاسيما السحرة الماهرون، فأقعدهم ما رأوا، وكشف الله به عن قلوبهم الغفلة، وأزاح القسوة، فخروا لله سجدًا،

وقالوا أمام الحاضرين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ (الأعراف: ١٢١ – ١٢٢)

لِمَ كان السحرة هم أوّل من آمن بموسى؟

كان السحرة هم أوّل من آمن بموسى؛ لأنهم كانوا أكثر الناس معرفة بأنَّ هذا ليس بسحر ولا بشعوذة، وذلك بحكم خبرتهم بهذه الصنعة.

لطيفة: قال السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ (الأعراف: ١٢١ – ١٢٢) بينما قالوا في سورة طه: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (طه: ٧٠) بتقديم هارون على موسى، فهل لهذا التقديم سرّ؟

علّل فضل عباس تقديم هارون على موسى في هذا الموضع بالذات مع أنّ المواضع الأخرى قُدم فيها موسى، قائلًا: " فذهب بعضهم إلى أنّ موسى أُخّر في هذه الآية مراعاة لفواصل السورة، حيث إنّ السورة كلها وهي سورة طه تنتهي بهذه الفاصلة ...، وإننا مع تقديرنا لجمال الإيقاع وفنية الجرس، لكننا لا نراه السبب الذي من أجله جيء بهذه الفاصلة بل لا بدّ من سبب آخر يتصل بالمعنى والسياق.

وذهب بعضهم إلى أنّ هذه الآية جاءت هكذا؛ لأنّها تحكي لنا ما قاله السحرة فبعضهم قال: " **ربّ موسى وهارون** "، وبعضهم قال: " **ربّ هارون وموسى** " فحدثتنا كل آية عن فريق من أولئك المؤمنين، ونرى أن هذا لا يقدم لنا حلًّا مقبولًا، ولا يعطينا جوابًا مقنعًا، فالتساؤل

لا يزال باقيًا، لماذا قُدّم هارون في سورة طه، وأُخّر في غيرها من السور القرآنيّة؛ إنّ الأمر – إذن – يحتاج إلى فكر وبحث.

الذي يبدو لي – والله أعلم بما ينزل – أنّ سورة طه هي السورة الوحيدة التي قد حدثتنا عمّا كان من موسى – عليه الصلاة والسلام – من خوف، وكان حريًّا به ألّا يكون منه ذلك، فهارون أولى بالخوف من موسى عليهما الصلاة والسلام؛ لأنّه لم يشاهد ما شاهده موسى، ولم يشرف بمناجاة الحقّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ (طه: ٦٧ ــ ٦٨)

فكان حريًّا أنْ يكون رابط الجأش ثابت الجنان، من أجل ذلك يلوح لي أنّ هارون – عليه الصلاة والسلام – قُدِّمَ في هذه السورة، وهي قيمة قرآنيّة عظيمة حريّ بنا أن نقف عندها ونتدبرها وهي تقدير كل عامل بعمله." (فضل عباس وسناء عباس)

نعود – والعود أحمد – إلى أحداث هذه القصة الشيقة المثيرة، حيث أذهل فرعون ما رأى، ولكنه أذهله أكثر قول السحرة وفعلهم، ممّا أفقده صوابه وهدوءه، وشعر أنَّ كبرياءه يُخدش، وأنَّ كرامته تُهان، وأنَّ عرشه يهتزُّ من تحته، ففكّر وقدّر، فقُتِلَ كيف قدّر!!

فبادر الطاغيةُ يخاطب السحرةَ بحضور الناس أجمعين، وكأنّه يقول: إياك أعني واسمعي يا جارة، خشية اتّباع الناس السحرة: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ٤٩﴾ (الشعراء: ٤٩) أي: أآمنتم به؟ وقد حذفت همزة الاستفهام، وهذا من خصائصها.

ورماهم بتهمة المؤامرة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ (الشعراء: ٤٩)، وقد قال فرعون هذا الكلام للتلبيس على قومه؛ لئلا يعتقدوا أن السحرة – وهم المثل الأعلى في عين القبط – آمنوا بموسى عن بصيرة وظهور حقّ، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ (الأعراف: ١٢٣) أي: قال فرعون: إن إيمان السحرة بموسى لأمر دبر بليل لتشريدكم أيها القبط من بلادكم التي تكرمون فيها.

ولمّا كانت نظرية المؤامرة خدعة لم تنطلي على أحد، حيث كلّ فرد في مملكة فرعون يعلم أنَّ موسى لم يرَ هؤلاء السحرة يومًا من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟!

أدرك فرعون حينها أنَّ حيلته لم تلقَ القبول، وأنَّ المزاج العام يتجه نحو الاقتداء بالسحرة واتّباع موسى وهارون، فاستخدم فرعون التهديد فأبرق وأرعد قائلًا: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الشعراء: ٤٩) أي: سوف تعلمون أيها السحرة عند عقابي لكم وبال ما صنعتم من الإيمان بموسى، وهذا الكلام وإن كان موجه للسحرة فإنه يحمل تهديدًا مبطنًا لعامة الناس قبطًا وإسرائيليين.

ثم غلظ العقاب على السحرة إن استمرّوا في الإيمان بموسى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ (طه: ٧١) أي: لأقطعن اليد اليمنى لكل واحد منكم مع رجله اليسرى، أو بالعكس ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى

جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ (طه: ٧١) أي: ثم بعد ذلك لأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ (طه: ٧١) أي: " ولتعلمن أيها السحرة من هو أشدُّ منا عذابًا وأدوم، هل أنا أمْ ربّ موسى الذي صدقتم به وآمنتم؟" (محمّد الصابوني)

قاتله الله ما أفجره!!

فتوعدهم الطاغية بعقاب لم يفعله أحد من قبله[1]، ظنًّا منه أن عقابًا كهذا كفيل بأن يرعب السحرة، ويرجعهم عن إيمانهم بإله موسى وهارون، ولكن خاب فأله، وانهزم خيله، فإنَّ الايمان الصادق إذا ما خالط بشاشة القلوب أنّى نزعه؟

فأجاب السحرةُ فرعون بثقة المؤمن الصابر المحتسب: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥﴾[2] (طه: ٧٢ – ٧٥)

---

(١) قال ابن جرير: " أوّل من قطع الأيدي والأرجل من خلاف هو فرعون، وأوّل من صلب هو فرعون." (ابن جرير: ٢٠٠٢)

(٢) ما المقصود بقول السحرة: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾؟ =

وقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾ (الأعراف: ١٢٥ – ١٢٦)

وقالوا: ﴿لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ (الشعراء: ٥٠ – ٥١)

كيف قال السحرة عبارات مختلفة والقصّة واحدة؟

قال زكريا الأنصاري: " حكى الله ذلك عنهم مرارًا، بألفاظ متساوية معنى، جريًا على عادة العرب في التفنن في الكلام، والحذف في محلّ،

= هذا القول من السحرة كان في معرض حديثهم مع فرعون عندما توعدهم بالعقاب الأليم لاتّباعهم موسى، أمّا مقصدهم بإكراه فرعون لهم: ذُكر: أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلمّا أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين، فكان إكراههم بالنسبة إلى أوّل الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر.

وذُكر: أن فرعون كان يجبرهم على تعاطي السحر من خلال مدحه للسحرة، وإجزال العطاء لهم، وبالجملة هيّأ الجوَّ العامَّ لانتشار السحر وتعاطيه؛ لذا نسب السحرة تعاطيهم للسحر بأنه إكراه من فرعون لهم بحسب هذا المعنى.

ويُحتمل: أنهم قصدوا بالإكراه هنا: ما حدث من تدخل خفي من فرعون عندما شعر باختلاف السحرة في موسى في بداية المواجهة: أهو نبي أم ساحر؟ عندها تتخل فرعون بطريق خفي خبيث لحثّهم على مواجهة موسى، والله أعلم.

وقد خصّوا السحر بالذكر بالذات مع أنه يدخل في عموم خطاياهم، للإشعار بشدّة نفورهم منه، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم الله إلى الإيمان.

وإحالةً على ذكره في محلّ آخر، وإنما خولف في ذلك؛ لئلا يُملّ إذا تمحَّض تكراره." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

◎ فرعون ينفذ تهديده:

استشاطَ فرعون غيظًا من ثبات السحرة وعدم اكتراثهم لوعيده؛ فأَتْبَعَ القول العمل، ففتك بهم، ومثّل بجثثهم فقطع الأيدي والأرجل من خلاف الرجل اليمنى مع اليد اليسرى، أو بالعكس، ثم صلبهم في جذوع النخل، وكأنَّه يتشفى بذلك لكبريائه المهان بهذا الصنيع البشع، فقضوا نحبهم رضوان الله عليهم.

يقول السعدي: " ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأتِ في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل ...، ولكن توعده إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

ومن الأدلّة على تنفيذ فرعون ذلك التهديد قول ابن عباس: " كانوا في أوّل النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة."

(محمّد الصابوني)

على كل حال: " كسب الحقُّ في هذه الجولّة أنصارًا من أهل مصر كان يمكن أن يكونوا نواة (للحريّة) وللتوحيد بين أهلها لولا أنَّ فرعون عاجلهم بهذه العقوبة الجائرة؛ ليحول دون التفاف الجماهير حولهم، واقتدائهم بهم في الإيمان بربّ موسى وهارون." (محمّد هراس)

◘ تمادي فرعون في طغيانه:

رأى فرعون من آيات ربّه الكبرى ما رأى فهل ارْعَوى عن بغيه؟ وهل انتهى عن غيّه وبغيه؟ لا، بل قام بأعمال دمويّة، بقصد إخماد الثورة التوحيديّة التي أشعلها موسى وهارون، ففتك بمَنْ آمن بموسى وهارون من السحرة البررة المؤمنين، وأغرته بطانته الفاسدة على الفتك – أيضًا – بموسى وبني إسرائيل الفئة المغلوبة المضطهدة قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ (الأعراف: ١٢٧) أي: أتتركهم (أنت) يعبدون ربّ موسى وهارون، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك، فيظهر للناس عجزك وعجزها، فتكون الطامّة الكبرى التي بها يفسدون ملكك.

وتأمّل: رأوا – قبّحهم الله – أن دعوة موسى إفساد في الأرض!

وتأمّل أيضًا في كلام الملأ السابق: تراه يطفح بأشدّ ألوان التآمر والتحريض والعدوان، فها هم يخوفون فرعون فقدان الهيبة والسلطان!

فأجابهم فرعون بمنطق الطغاة: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ (الأعراف: ١٢٧)، ثم اعتذر فرعون للملأ من قومه على إبطائه في استئصال موسى وقومه، قائلًا: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧) أي: هم لا يقدرون أن يفسدوا في الأرض، ولا أن يخرجوا على طاعتي.

◎ فرعون يصدّ بني إسرائيل عن الإيمان بموسى:

نفذ الطاغية وعده، فوقع التقتيل الثاني لذكور بني إسرائيل، وكان الدافع لهذا التقتيل إهانتهم وإذلالهم، ومنعهم من الإيمان بموسى، وقد نجح الخبيث في ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٍ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (يونس: ٨٣) أي: لم يؤمن من بني إسرائيل إلّا مجموعة من الشباب صبروا على الخوف لمّا نبت في قلوبهم من الإيمان.

وتأمّل: كانت غالبية الذين آمنوا بموسى من الشباب، فما السرُّ في ذلك؟!

قال السعدي: " الحكمة – والله أعلم – أنَّ مَنْ آمن بموسى هم الشباب، أنَّ الشباب أقبل للحقّ، وأسرع له انقيادًا، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممّن تربّى على الكفر فإنهم – بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة – أبعد عن الحقّ من غيرهم."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

وليس معنى ذلك أن بقية قوم موسى كفروا به، إذ يحتمل أنهم قد آمنوا بموسى بعد ذلك، لمّا بلغتهم دعوته، حيث إن بدء دعوته كانت لفرعون وقومه.

على كل حال: ضجَّ بنو إسرائيل بالشكوى لموسى – عليه السلام – لِما يلقونه على يد فرعون وزبانيته الجلادين من ذلّ وهوان وظلم

وتقتيل، فقال لهم موسى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)، فأوصاهم بأن يصبروا ويكونوا متقين، ووعدهم إن فعلوا ذلك أن تكون الغلبة لهم.

ذَكَّرَ بنو إسرائيل موسى بعذاباتِهم القديمة: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ (الأعراف: ١٢٩) أي: كان أبناؤنا يقتلون قبل مجيئك وبعده!!

شعر موسى بآلامهم فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ (الأعراف: ١٢٩)

قال القرطبي: " (عسى) من الله واجب، جدّد لهم الوعد وحقّقه، وقد استخلفوا في مصر زمان داوود وسُليمان - عليهما السلام - وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وأوصاهم موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤) فما كان منهم أمام هذا الصدق من موسى بالبشارة والتطمين إلّا التسليم والإذعان لربّ العالمين، والدعاء بالنصر والتمكين: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (يونس: ٨٥ – ٨٦)

◎ فرعون يصدّ قومه (القبط) عن الإيمان بموسى:

بعدما نجح فرعون الخبيث الماكر في منع بني إسرائيل من اتّباع موسى، أخذ يصدُّ قومه عن اتّباع موسى، وذلك بالتضليل الإعلامي، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١) أي: قال فرعون لقومه عامّة ولرؤسائهم خاصّة: أليس بلاد مصر الواسعة بأنهارها وخلجانها ملكًا لي؟ فابصروا ووازنوا بين سعة ملكي وعظمة سلطاني وبين فقر موسى وذلّته!

واستفهام فرعون هذا كان محاولة خبيثة لانتزاع إقرار جماهيري غوغائي من قومه بتفوقه على موسى حيث إنه مَلِكُ مصر، بينما موسى لا مُلْكَ له ولا سلطان، وفي كلام فرعون هذا يشتم فيه رائحة الغرور والتكبر!!

ثم وجههم إلى الجواب الذي يريده، وهو أنه خير من موسى، وعلّل ذلك الجواب بأنه عزيز مكرم فصيح، بينما موسى يمتهن نفسه بالخدمة، ولا يُفَهِّم ولا يَفْهَم، فقال فرعون: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢) (أَمْ) هنا المنقطعة المقدّرة، بمعنى: بل، أي: بل أنا خيرٌ من هذا الذي هو فقيرٌ، وليس صاحب ملك.

ثم قال: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ (الزخرف: ٥٣) أي: فهلا أثبت أنه رسول بأن يُلقي عليه أسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوّته، أو جاء الملائكة معه ليكفونه الخدمة، وشاهدة له بصدقه.

قال أبو حيان: " لمّا وصف فرعون نفسه بالعزّة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضعف وقلّة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقًا فهلا مَلّكَهُ ربُّه وسوّره وجعل الملائكة أنصاره." (محمّد الصابوني)

ثم ختم فرعون حديثه مع قومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1] (غافر: ٢٩) أي: لا أرى لكم إلّا ما أراه نافعًا لنفسي وهذا من تضليله لقومه وكذبه؛ لأنّه كان متيقنًا في صدق موسى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤﴾ (النمل: ١٤)

وقال فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ (النازعات: ٢٤) وهذا كلُّه من ترويج الخبيث فرعون، وليس العجب ممّا قاله فرعون، إنما العجب من ملئه، الذين يُصفون بأنهم حكماء المملكة، وصناع قرارتها، كيف لعب

---

(١) هذه المقولة هي شعار الفكر القمعي المتسلّط المستبدّ في كل زمان ومكان، والتي تفوح منها رائحة الأنا الغاشمة والدكتاتوريّة البائسة، هي مقولة منطق من يرفض إعمال العقل والنظر في الأمور.

هذا الرجل بعقولهم، ويبدو أن هذا كان " لفسقهم الذي هو صفة راسخة فيهم، ففسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

على كل حال: نجح الخبيث – ويا للأسف – في مقصده، فأطاعه قومه، ولم يؤمن بموسى إلّا نفرٌ قليلٌ[١]، فكان شرّ سلفًا مقدمًا لقومه إلى نار جهنم**!!**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴿٩٩﴾﴾[٢]

(هود: ٩٦ – ٩٩)

الحاصل: أحسَّ فرعون بخطورة ثورة موسى التوحيديّة، وخشى أن تلقى قبولًا في مملكته من القبط أو من بني إسرائيل، فاحترز أيما احتراز من انتشارها مرّة بالتقتيل، وتارة بالتضليل.

---

(١) وهم: مؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ (القصص: ٢٠)، وماشطة ابنة فرعون.

(٢) قوله: (الورد المورود): أي: المَدْخل المدخول فيه وهو النار، وقوله: (بئس الرفد المرفود): " أي: بئس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة." (عبد الرحمن السعدي :٢٠٠٢)

فهل ينجح فرعون في ذلك؟!

هذا ما ستجيب عليه النقاط الآتية!!

◎ مؤمن آل فرعون:

لم يطمئنْ فرعون الطاغية إلى أن ما قام به سيخمد الثورة التوحيديّة، ما دام قائدها حيًّا يسعى، ووصل لقناعة مفادها: بأن استئصال صاحبها هو الحلّ الأمثل، فقرّر قتل موسى!!

وأراد الخبيث أن يضفيَ شرعية – من قومه – على جريمة ما عزم عليه من قتل موسى، فعقد اجتماعًا عاجلًا، وقال فيه كلامًا يعبر عن حالته الهستيرية التي أصابته من ثبات موسى، فقال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ (غافر: ٢٦) أي: دعوني أخلصكم من موسى بقتله، ثم قال: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ (غافر: ٢٦) أي: ليعمل ما يريد، ثم علّل الخبيث هذا القرار بـ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦) ويقصد فرعون بوقوع الفساد في الدين عندما يترك الناس عبادته إلى عبادة إله موسى، وأمّا الفساد في الدنيا – في نظره – يقع عندما يجتمع الناس حول موسى، فيكثر أتّباعُ موسى فيقتلون أتّباعه، ولا يخفى مدى خبث فرعون في هذا الكلام، وكعادة فرعون – أيضًا – لم يفته أن يستهزئ بموسى قائلًا: فليدع ربَّه هل سينجيه مني؟!

هل كان فرعون عاجزًا عن قتل موسى حتى قال لمن حوله: ذروني أقتل موسى؟!

قال سيد قطب: " إنَّه لا يقصد بهذا الكلام أن يتركوه ليقتله، وإنما أراد منهم أن يهيئوا له المناخ العام حتى إذا قتله لا يحزن الشعب على قتله فيثأروا له، فما كان من بطانة السوء إلّا قامت بحملةٍ إعلاميّةٍ خبيثةِ الهدف منها التشكيك في رسالة موسى عليه السلام."

(سيد قطب: ١٩٨٦)

على كل حال: سمع قوم فرعون دعوة ملكهم الدمويّة الداعية إلى قتل موسى قتلة عدوانيّة، فتعالت نبرات حقدهم الأسود المملوءة كراهيّة، والتي أيدت قتل موسى شر قتلة غاشمة قويّة**!!**

وفي وسط هذا الاجتماع الفرعوني الصاخب، يخرج صوت إيماني حرّ يهتف بالحقّ فيهم بموعظة بليغة مُدَوّية، ومنذرة لهم بسوء العاقبة إن هم أصروا على كفرهم وارتكاب جريمتهم الغاشمة الغادرة، وكان هذا الصوت هو صوت مؤمن آل فرعون الذي سجّل القرآن موعظته الصادقة القويّة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم

بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾﴾ (غافر: ٢٨)

قال ابن كثير:" المشهور أنّ هذا الرجل المؤمن قبطيٌّ من آل فرعون وليس إسرائيليًا...، وقد كان يكتم إيمانه عن قومه، فلم يظهر إلّا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ (غافر: ٢٦)، فأخذت الرجل غضبة لله – عزّ وجلّ – وكما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ (غافر: ٢٨) أي: " كيف تقتلون رجلًا أن يقول ربّي الله، وقد أقام لكم البرهان تلو البرهان على صدق ما جاء به من الحقّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وصف القرآن لمؤمن آل فرعون:

وصف القرآن هذا الرجل بصفة عظيمة وهي الإيمان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ (غافر: ٢٨)

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ (غافر: ٣٠)

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: ٣٨)

ممّا يدلُّ ذلك على كمال إيمانه ودوامه وثباته.

مؤمن آل فرعون يحاول منع قتل موسى:

حاول هذا المؤمن منع هذه الجريمة البشعة، قال قطب: " فها هو يفظّعُ ما هم مقدمون عليه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨)، فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل؟!" (سيد قطب: ١٩٨٦)

" ثم يخطو بهم خطوة أخرى، فالذي يقول هذه الكلمة البريئة: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، يقولها ومعه حجّته، وفي يده برهانه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ (غافر: ٢٨)، يشير إلى الآيات التي عرضها موسى – عليه السلام – ورأوها، وهم – فيما بينهم وبعيدًا عن الجماهير – يصعب أن يماروا فيها." (سيد قطب: ١٩٨٦)

ويحذر هذا الرجل الناصح الأمين قومه قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (غافر: ٢٩)

فاستفتح خطابه بتذكيرهم بصلة النسب التي تربطه بهم " **يا قوم**"؛ ليكون لكلامه وقعًا في قلوبهم، ثم عدد نعم الله عليهم بأنَّهم ظاهرون الآن على أهل زمانهم، فإن ظلمتم وتجبّرتم بالقوّة التي تفضل الله بها عليكم فمن ينصركم عندئذ من بطش الله بكم إن عذبتم عباده وقتلتم رسوله؟!

قال ابن كثير: " يحذرهم أن يسلبوا هذا المُلك العزيز، فإنَّه ما تعرضت الدولة للدين إلّا سُلبوا مُلكهم، وذلّوا بعد عزّهم."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

ما أن سمع فرعون هذا الصوت النشاز إلّا أن تأفف منه خاصّة أنَّه خارج من قومه، فحاول فرعون أن يخمد هذا الصوت الإيماني الحرّ ويقمعه، فقال بحسم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ (غافر: ٢٩)

لكنّ هذا القمع الفرعوني لم يثنِ هذا الناصح الصادق عن مقاومة الطغيان والقمع، فذكرهم هذا المؤمن بما حلّ بأقوام سابقين معروفين لديهم، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ (غافر: ٣٠ – ٣١) فألمح بطريقة ذكية أن مصيرهم سيكون نفس مصير هؤلاء الهالكين إن ساروا على خطاهم، والسعيد من وعظ بغيره.

ولمّا كان الناس دائمًا – مؤمنهم وكافرهم – مفطورين على الخوف من قوّة أكبر منهم، المؤمن يعرفها، وهي قوّة الله، أمّا الكافر وإن كانت غامضة لديه إلّا أنه يشعر بها في أعماق نفسه ويخشاها؛ لذا حرك هذا الناصح هذا الخوف الجبلي الكامن في نفوسهم من الله وإن كانوا لا يظهرونه؛ ليثنيهم عن غيهم وبغيهم، مصوّرًا مشهدًا مهولًا ليوم القيامة حيث تنادي الملائكة الناس للحشر، وهم حفاة عراة لا ملجأ ولا منجى من الله إلّا إليه، فما تتوقعون حالكم في هذا اليوم؟!

قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ (غافر: ٣٢ – ٣٣)

وعاتبهم على كثرة شغبِهم على أنبياء الله، فقال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ (غافر: ٣٤)

وهذا العتاب وإن كان موجهًا لأسلافهم فإنَّهم مؤاخذون عليه أيضًا؛ لرضاهم به، وسيرهم به مع أنبياء زمانهم كسلفهم حذو القُذَّة بالقُذَّة، فحذّرهم أن يسلكوا نفس طريق الأسلاف مع الأنبياء!

ويبدو أن هذه النصيحة لم يستطع فرعون تجاهلها، فراوغ روغان الثعالب المخادعة، فطلب من وزيره هامان بناء صرح مرتفع ليصعد عليه إلى السماء؛ ليطلع إلى إله موسى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ (غافر: ٣٦ – ٣٧)

وهكذا الطغاة دومًا عندما تخرسهم الحججُ الدامغةُ يراوغون كالثعالب المخادعة؛ كي لا يسجل الحقُّ عليهم انتصارًا أو يكسب أنصارًا!

مؤمن آل فرعون لم يستغرب مراوغة فرعون الماكرة، وتفننه في الاستهتار والتدليس، والاستخفاف بالعقول المُغيبة فقد عايشه زمنًا!!

وهذا التدليس والاستخفاف بالعقول ما كان إلّا أن يزيد هذا المؤمن الناصح الصادق تصميمًا لإكمال دعوته، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ (غافر: ٣٨)

وتأمّل – يا رعاك الله –: لم يجرؤ مؤمن آل فرعون أن يقول لا تتّبعوا فرعون؛ ففرعون وصل طغيانه لحدّ لا يجرؤ معه أي إنسان مهما كان أن يتفوه بهذا الكلام؛ لذا عدل عنه بدعوتهم لاتّباعه وحسب، واستخدم نفس مصطلحات فرعون مصطلح ﴿ٱلرَّشَادِ﴾، ولكن شتان بين رشاده ورشاد فرعون.

وقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ (غافر: ٤١ – ٤٣)

ثم ختم نصيحته المشفقة ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ (غافر: ٤٤)

هل قتل فرعون وزبانيته صاحب هذا الصوت الإيماني الحرّ؟

قال القرطبي: " ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ (غافر: ٤٤) يدلّ على أنهم هددوه وأرادوا قتله، ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ (غافر: ٤٥) أي: نجّاه الله من شدائد مكرهم ومن أنواع العذاب الذي أرادوا إلحاقه به."

(القرطبي:٢٠٠٢)

○ آيات موسى التسع:

في هذه الفترة سَلَّطَ اللهُ على فرعون وقومه أنواعًا من الابتلاء لعلهم يرجعون، وأَظْهَرُ هذه الابتلاءات الآيات التسع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٠ – ١٣٣)

والآيات التسع هي:

١- العصا: وهي انقلاب عصاه - عند إلقائها - إلى حيّة عظيمة تسعى، وإذا أمسكها تعود سيرتها الأولى عصا من خشب.

٢- اليد: وهي تغير لون يده إلى البياض من غير سوء عند إدخالها في جيبه ثم إخراجها منه.

٣- الطوفان: وهو كثرة المطر الذي كان يضرُّ بالزرع والشجر، وقيل: فيضان النيل عليهم، وقيل: الموت، والأوّل أَظْهَرُ.

٤- الجراد: وهو الحشرة المعروفة، وأرسل إليهم بشكل غير مسبوق حتى أكل نباتاتِهم، ولم يترك لهم شيئًا.

٥- القُمل: وهو السوس الذي يفسد الحبوب كالقمح وغيره، وقيل: هو البراغيث، وقيل: البعوض دخل معهم البيوت والفُرش فلم يقرّ بهم قرار.

٦- الضفادع: وهي معروفةٌ، وقد زادت حتى نغصت عليهم عيشهم.

٧- الدم: فقد امتزج ماؤهم به، فلا يستقون من بئر أو نهر إلّا انقلب دمًا عبيطًا في الحال، وقيل: الدم هو الرعاف، والصواب الأوّل.

بقيت آيتان قد اختلف فيها، قال محمّد بن كعب: " هما (الطمس والحجر) إضافة إلى السبع السابقة، وقال ابن عباس هما: (البحر والسنون)، وفي رواية أخرى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة

والشعبيّ أنهما: (السنون ونقص الثمرات)[1]، وقال ابن كثير: هذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصريّ السنين ونقص الثمرات واحدة، وعنده أنّ التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون."

(مجدي الشهاوي)

وقد حلّت هذه العقوبات بقوم فرعون وحدهم دون بني إسرائيل، قال ابن كثير: "هذا كلّه لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلّيّة، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحُجّة القاطعة أنّ هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدلّ دليل." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

كيف قابل آل فرعون هذه الآيات؟

وقعت هذه الابتلاءاتُ والعقوباتُ تَتْرَى (أي عقوبة إثر عقوبة) لعلَّ آل فرعون يرجعون ويؤمنون، ويفكّون أسر بني إسرائيل، وبرغم عظم هذه الآيات إلّا أنهم استكبروا عن اتّباع موسى، فكانت إذا نغصت عيشَهم، وأذهبت العقوبة لَذَّةَ حياتهم يجأرون إلى موسى، ويطلبون منه أن يسأل ربَّه أن يرفع عنهم ما حلَّ بهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ

---

(١) السُّنون: " وهي القحط والجدب، حيث أصاب قوم فرعون أعوام جدب لا يُستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع." (محمّد الصابوني)

أمّا نقص الثمرات: " هي قلّة الثمار من الأشجار بسبب الجوائح والعاهات." (محمّد الصابوني)

لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (الأعراف: ١٣٤)

وقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] (الزخرف: ٤٩)، فكان موسى يجيبهم إلى طلبهم، رغبة في إيمانهم.

ولكن – ويا للأسف – ما أن كُشِفَتْ عنهم عقوبةٌ إلّا وينكثون عهدهم، ويظلّون على ولائهم لمَلِكهم، وضحكوا منها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الزخرف: ٤٧)، فيرسل عليهم آية ثانية ومَثْلة أخرى، هي أشدُّ من التي أتت قبلها وأقوى ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الزخرف: ٤٨)

وكانت هذه الآيات وهذه المثلات بمثابة تنبيه وإنذار لفرعون وقومه إمّا يعودون إلى رشدهم، ويثوبون إلى صوابهم، وإمّا سيحلُّ بهم ما ليس له دافع ولا مناع من الله عزيز الجانب، ويبدو أن هذه الآيات لم تنفعهم، فكان ما أراده الله لهم من هلاكهم.

---

(١) قال ابن كثير: " لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصًا أو عيبًا؛ لأنَّ علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة؛ ولهذا خاطبوه به حال احتياجهم إليه، وضراعتهم لديه." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

⭘ هلاك فرعون وجنده:

لقد شاءت أقدارُ الله تعالى أن يكون لكل مخلوق من خلقه بداية ونهاية، وشاءت كذلك أقداره أن يضع لكل متجبّرٍ طاغٍ حدًّا وكفاية، ومن هؤلاء الطغاة المتجبرين الذين وضع الله لهم نهاية مؤلمة فرعون وجنده، فقد مضت الآيات والعقوبات تنزل بقوم فرعون، وكلما كُشفت عنهم عقوبةٌ إذ بهم ينكثون، والحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدّم لهم بالوعيد، حتى أخذهم بعد إقامة الحُجّة عليهم والإعذار إليهم، وجعلهم عبرة لمن شابههم من الكافرين، ومثلًا لمن اتّعظ بهم من المؤمنين.

وكانت بداية هلاكِهم دعوة من نبيّهم موسى عليهم، فقد دعا عليهم قائلًا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾
(يونس: ٨٨)

أي: يا ربّ أعطيتُ فرعون وملأه أموالًا ليضلوا الناس بإبعادهم عن صراطك، واللام في (ليضلوا) هي لام العاقبة والصيرورة، أي: أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة والمال ليخلصوا لك العبادة والطاعة، ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر، فكانت عاقبة أمرهم الخسران والضلال.

وهذا قد يغترُ بسببه مَن يُعَظِّمُ الدنيا، فيظنُّ الجاهل أنَّهم على صواب، فيا ربّ أهلك أموالهم بتبديدها، واطبع على قلوبهم فلا تنشرح للإيمان حتى يرووا العذاب الشديد.

قال ابن كثير: "هذه دعوةٌ عظيمةٌ دعا بها كليم الله موسى على عدوّ الله فرعون، غضبًا لله عليه لتكبره عن اتّباع الحقّ، وصدّه عن سبيل الله ومعاندته وعتوّه وتمرده." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

إشكال: كيف جاز لموسى أن يدعو عليهم بهذا؟
قال الرازي: " واعلم أن نبيًّا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلّا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم، كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ (نوح: ٢٧)." (محمّد الصابوني)
وقال الصابوني: " إنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدّة ضلالهم، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم." (محمّد الصابوني)

الحاصل: استجاب تعالى له: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ (يونس: ٨٩) أي: قد استجاب الله لدعوتكما على فرعون وملئه ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ (يونس: ٨٩) أي: اثبتا على ما وفقكما الله عليه من الإيمان بالله والدعوة إليه بالحجج الباهرة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ (يونس: ٨٩) أي: " ولا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى." (محمّد الصابوني)

والذي كان يدعو موسى وأمّا هارون كان يُؤَمِّنُ، فكأنه بمنزلة الداعي؛ لذا جاءت الآية بصيغة المثنى.

◎ موسى وهارون يتبوآن لقومهما في مصر بيوتًا:

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون – عليهما السلام – أن يتخذا لقومهما بيوتًا، وقد اختلف في سبب ذلك على قولين:

القول الأوّل: لتكون مساجد ليصلوا فيها خفية من فرعون وقومه؛ لئلا يؤذونهم ويفتنهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ (يونس: ٨٧) أي: أوحينا أن اجعلوا بيوتكم مساجد، وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها.

قال ابن كثير: " ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضرّ والشدّة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة: ٤٥)، **وكان النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلّى."**[١]

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

القول الثاني: ذكر ابن كثير: " أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون – عليهما السلام – أن يتّخذا لقومهما بيوتًا مميزة فيما بينهم عن بيوت القبط؛ ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أُمِروا به؛ ليعرف بعضهم بيوت بعض." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وكلا القولين محتملان.

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة: (١٣١٩))

الحاصل: بقي موسى وبنو إسرائيل في مصر منتظرين الأمر بالهجرة، وإذ بالوحي يأمر موسى – عليه السلام – أن يخرج ومن معه من بني إسرائيل من أرض مصر ليلًا في اتجاه أرض فلسطين المقدّسة، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾[1] (الشعراء: ٥٢)

وأعلم الله نبيَّه موسى أن فرعون وجنده سيلاحقونهم ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ (الشعراء: ٥٢)، والسرُّ في إخبار الله موسى بذلك؛ ليكون أهون لقلوبهم إن شاهدوا وفرعون بقضه وقضيضه وهو قد لاحقهم، وليسرعوا في الخروج.

وبالفعل سرعان ما تجهّزَ موسى وبنو إسرائيل على عجل، وخرج موسى متجهًا بهم ليلًا إلى أرض فلسطين على خوف ووجل، وأخذوا يجدون السير ذُعرًا من فرعون وقومه، ويستفاد من خروج موسى ببني إسرائيل من أرض فرعون أن الخروج بالدين واجب على المسلم خاصّة إذا لم يستطع المسلم أن يعبد الله حقّ عبادته في الأرض التي يقيم فيها.

جاء الصباح وتفاجأ فرعون وقومه بخروج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر، فحنق عليهم أيما حنق، ولم يُخفّفْ حنقه عليهم إلّا إسراعه في اللحاق بهم، فسرعان ما جهّز جيشًا عرمرمًا للحاق بموسى

---

(١) قال القرطبي: " سماهم عباده لأنّهم آمنوا بموسى." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وبني إسرائيل والفتك بهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ (الشعراء: ٥٣)

وما أن تكامل الجيش عددًا وعدة وقف فرعون أمام هذا الجيش خطيبًا محرضًا جنده بالفتك بموسى وبني إسرائيل، قائلًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (الشعراء: ٥٤) أي: هؤلاء هم طائفة قليلة بالنسبة لكثرة جندنا ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ (الشعراء: ٥٥) أي: وإن بني إسرائيل يفعلون أفعالًا تضيق بسببها صدورنا وتغضبنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ (الشعراء:٥٦) أي: ونحن لهم منتبهون متيقظون.

هل كان فرعون في حاجة ليقول هذا الكلام؟

يبدو أن فرعون قال هذا تشجيعًا لقومه، ولئلا يظنّ به قومه ما يكسر هيبته عندهم.

على كل حال انصاع جند فرعون له، وأخذوا يسرعون الخطى نحو موسى وبني إسرائيل كأنهم يدفعون دفعًا، حتى أدركوهم عند شروق الشمس، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ (الشعراء: ٦٠)

فلمّا تراءى الجمعان، وتعاين الفريقان، عندها صرخ بنو إسرائيل، وهم وجلون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١) أي: نحن ملحقون لا محالة من قبل فرعون وجلاديه، والقتل هو مصيرنا المحتوم.

قال ابن كثير: " وذلك لأنّهم اضطرّوا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلّا سلوكه وخوضه وهذا ما لا يستطيعه أحد

ولا يقدر عليه، والجبال على يُسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدته، وهم منه في غاية الخوف والذعر، لِما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

عند ذلك ينطق كليم الله بثقة المؤمن وثبات المجاهد: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهۡدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢) أي: إن معي ربّي بالحفظ والحماية والنصرة والهداية، وسيهديني سبحانه إلى طريق الخلاص ممّا نحن فيه.

قال الرازي: " قوّى نفوسهم بأمرين: أحدهما أنَّ ربَّه معه، وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة، والثاني: قوله: (سيهدين) أي: إلى طريق النجاة والخلاص، وإذا دلّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصرة." (محمّد الصابوني)

لِمَ اقتصر موسى الهداية على نفسه في قوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهۡدِينِ﴾؟

ذُكر: لأنّهم لم يكونوا عالمين بما ضمن الله له من معية العناية.

وذُكر: أن طريق نجاة بني إسرائيل بعد إدراك فرعون لهم لا يتحصل إلّا بفعل خارق للعادة، ومثل ذلك لا يقع إلّا على يد رسول.

هل هناك فرق بين قول موسى – عليه السلام –: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ وقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر عندما غالقه المشركون عند باب غار ثور: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)؟

ذُكر: أنه لمّا قدّم موسى – عليه السلام – المعية عمل حيث ضرب البحر بعصاه، بينما لمّا قدّم الرسول – صلى الله عليه وسلم – الله على المعية لم يعمل شيء.

وهذا الكلام يوازن بين تصرفات نبيّين كريمين، والموازنة بين تصرفات الأنبياء لا تصحُّ؛ لذا الصواب أن تكون الموازنة بين موقف وموقف، فالموقف الأوّل: موقف موسى وقد أدركه فرعون، فقال قومه له: إنّا لمدركون، فردَّ عليهم: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾، والموقف الثاني: موقف الرسول وهو عند الغار، وقد غالقه الكفار، فقال لصاحبه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بذلك نفهم لِمَ قدّم موسى المعية على الاسم الأعظم الكريم؟ ولِمَ قدّم الرسول الاسم الأعظم على المعية؟

نعود – والعود أحمد – إلى موسى وقومه، فقد اشتدَّ الأمر سوءًا، بوصول فرعون وملئه قريبًا، وعلامات الغضب ترى عليهم من بعيد واضحة بيّنة، فكيف بها وهي قريبة دانية؟! وأمارات الانتقام ظاهرة جليّة، وإرادة التشفي قائمة قويّة، فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، عندئذ جاء الفرج، فأُوْحِيَ إلى موسى أن اضرب بعصاك

البحر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ (الشعراء: ٦٣)

وسرعان ما امتثل موسى أمر ربّه كسالف عهده، فما أن ضرب البحر حتى انفلق إلى فلقتين عظيمتين، قال تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦٣) أي: صار البحر جزئين كل جزء كالجبل الثابت الراسخ، وانحسر الجبلان كاشفان طريقًا يابسًا لا تعلق حوافر الخيول بطينه، في معجزة أخرى باهرة، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ (طه: ٧٧)

وبجانب هاتين المعجزتين الفريدتين سكَّنَ اللهُ اللطيف قلب كليمه بكلمات هادئة مطمئنة، بأنَّ فرعون لن يدرككم، وأنَّ البحر لن يغرقكم: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾[1](طه: ٧٧)

وهكذا اجتاز موسى وبنو إسرائيل البحر مسرعين مستبشرين، وقد عاينوا من الأمر العظيم ما يثلج صدور قوم مؤمنين، فلمّا جاوز موسى ومن معه البحر، وكان ذلك أوّل قدوم الطاغية فرعون وملئه، فأراد موسى أن يضرب البحر ثانية؛ ليرجع كما كان عليه؛ لئلا يعبره فرعون وجنده، ولكن الله القدير أمره أن يترك البحر رهوًا (أي: ساكنًا) على هذه الحال ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ (الدخان: ٢٤)

---

(١) جمعت الآية بين كلمتين مترادفتين: (تخف، وتخشى)؛ وذلك لأنه قد حصل بمجموعهما معنى لا يوجد عند انفرادهما.

وصل الطاغية وهاله ما رأى، وأحجم ولم يتقدّم، وندم على خروجه في إثر موسى، فهو يدرك في قراره نفسه أنه نبيٌّ مرسلٌ، ولكن نفسه الكافرة وسجيته الفاجرة أبت إلّا أن تدفعه إلى التمادي في كفره وطغيانه، فقال لجمعه: انظروا كيف انحسر البحر لأُدرك عبيدي الآبقين من يدي، والخارجين على طاعتي وبلدي؟! وما هي إلّا لحظات حتى اقتحم فرعون البحر بغرور وشقاء، والكفر عناد!!

فما كان من الجنود إلّا أن اقتحموا البحر خلفه مسرعين فإنَّه إلههم العظيم!! وهو هاديهم إلى سبيل الرشاد القويم!!

فلمّا هَمَّ أولهم بالخروج من البحر عند ذلك أمر العلي الكبير البحر أن يطبق عليهم فأغرقهم أجمعين، فما نجا منهم أحدٌ وهو سليمٌ، ولم يبق ببلد مصر إلّا العامّة والخدم والحريم.[١]

قال تعالى حاكيًا مصرع فرعون الذليل: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ

---

(١) قال ابن عبد الحكم في تاريخ مصر: " إنه من ذلك الزمان تسلّط نساءُ مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجْنَ بمن دونهنّ من العامّة، فكانت لهن السطوة عليهم، واستمرّت هذه سنّة نساء مصر إلى يومنا هذا."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (القصص: ٣٩ – ٤٢) فكانت عقوبتهم من أشدّ العقوبات، ومن أفظع المَثُلات، حيث اتّصلت العقوبة الدنيويّة بالعقوبة الأخرويّة.

تساؤل: الذي تجبّر هو فرعون فلِمَ أهلك الله معه جنده؟

نعم، الذي تجبّر هو فرعون، وقد أهلك الله جند فرعون مع ملكهم فرعون الطاغية؛ وذلك لأنّهم كانوا أدواته للإفساد في الأرض والظلم والتجبّر، ولولاهم ما كان لفرعون أن يستطيع (الإفساد) في الأرض، فبقوّتهم طغى وتجبّر، قال تعالى: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ (الفجر: ١٠) والأوتاد: أي: " الجنودُ الذين يشيدون له أمره."

(عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

فالجندي وإن كان لا يطغى مثل مَلكه الطاغية، إلّا أنه صار أداة مَلكه الطاغية في الطغيان والظلم، فكما شاركه في الظلم والطغيان، فإنه سيشاركه في الإثم والعذاب.

يُرْوى عن الإمام أحمد حينما كان مسجونًا في محنة خلق القرآن، سأله السجّانُ عن الأحاديث التي رويت في أعوان الظلمة، فقال له: الأحاديث صحيحة، فقال له: هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال له: لا! لست من أعوان الظلمة، إنما أعوان الظلمة من يخيطون لك ثوبك، ومن يطهون لك طعامك، ومن يساعدك في كذا، أمّا أنت من الظلمة أنفسهم.

الحاصل: كان هلاك فرعون وجنده يوم عاشوراء، **فعن ابن عباس قال: قَدِمَ النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – المدينةَ فرأى اليهودَ تصومُ يومَ عاشوراءَ فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يومٌ نجّى اللهُ بني إسرائيلَ من عدوِّهِم، فصامَهُ مُوسى، قال: أنا أحقُّ بمُوسى منكم فصامَهُ وأمرَ بصيامِهِ."** (رواه البخاري: (٢٠٠٤))

وقد أخبر الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – عن فضل صيام هذا اليوم، فقال: " **أحتسبُ على اللهِ أنْ يُكَفِّرَ السنةَ التي قبلَهُ.**"

(رواه مسلم: (٢٧٠٠))

ويسَلَّطَ القرآنُ الضوء على مشهد غرق فرعون الطاغية، فهو الذي ادّعى الألوهيّة، فَجُدِرَ أن يُعرض مشهد ذلّ رمز القهر والوثنيّة.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ (يونس: ٩٠) فقد صوّر القرآن مشهد ذلّ الطاغية وهو هالك مهان، فبعدما كان متكبرًا بجنده وقوته، متغطرسًا بجناته وأنهاره، إذ به يحاط بالغرق ويشرف على الهلاك، وسبحان العلي المنتقم الجبّار الذي جعل هلاك الطاغية بما كان يفتخر بملكه، وصدق الله العظيم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ**﴾ (الفجر: ١٤)، عندئذ أقر الخبيث الجافي الغليظ بأنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل، ويا للعجب حتى في هذه الحال لم يقل ربّ العالمين!

فوبّخه الله: آلآنَ تؤمنُ حينما يئست من الحياة، وكنت قبل لحظات يسيرة في ضلال وطغيان وصدّ عن سبيل الواحد الديّان!

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ (يونس: ٩١)

فاليوم يا أيُّها الطاغية المغرور بمُلكك وجندك نجعلك ببدنك على مكان عالٍ؛ ليُنْظر إلى ذُلّكَ وهوانِكَ وأنت هالكٌ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ (يونس: ٩٢)

زيادة وتفصيل:

١. هل كان جبريل يدسُ من طين البحر في فم فرعون مخافة أن يدركه رحمة الله؟

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: " قال جبريل: يا محمّد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة." (رواه الترمذي: ٣١٠٧)

قال العلماء: الحديثُ صحيحٌ لغيره، فهل كان جبريل – عليه السلام – يكره إيمان فرعون؟!

الإجابة: لا، فما توجيه تصرّف جبريل؟

الذي يبدو أن لشدّة كفر فرعون وعتوّه فعل جبريل هذا معه، وإلّا فإن فرعون لم يؤمن إلّا أثناء هلاكه، والتوبة في أثناء خروج الروح، ومعاينة الهلاك لا تقبل، فكان فعل جبريل لمزيد من الاحتراز أن يرحمه الله.

٢. استجاب الله تعالى ليونس– عليه السلام – عندما نادى في الظلمات، ولم يستجب لفرعون هنا، فما السرّ؟

قال الرازي: " إن يونس قد سبق له المعرفة بهذه الكلمة (الدعاء)، فسَبْقُ المعرفة إعانة على قبولها منه.

أمّا فرعون فقد تقدم له سَبْق النكرة، وذلك لأنّه كان ينادي بربوبيّة نفسه، قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ٢٣ – ٢٤) أمّا يونس فإنه كان ينادي بربوبيّة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ (القلم: ٤٨)، وقال: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾ (الصافات: ١٤٣)

وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات فإن الله يحفظه في الفلوات." (الفخر الرازي)

هكذا ما كان أن يمرّ مشهد ذلّ الطاغية مرور الكرام؛ ليكون عبرة لذوي الألباب الكرام!

ويسدلّ القرآن الستار على مشهد مصرع القوم الذليل بقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (الدخان: ٢٥ – ٢٧) أي: فكم ترك آل فرعون من بساتين وحدائق وأنهار وعيون، وكم تدلّ على الكثرة، وهذا التعبير يوحي بخسارتهم الكبيرة في الدنيا قبل الأخرة!

﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩) أي: ما حزن على فقدهم أحد، ولا تأثر بموتهم كائن من الخلق." (محمّد الصابوني)

وقال القرطبي: " تقول العرب عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي عمّت مصيبته الأشياء حتى بكته الأرض والسماء والريح والبرق." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وبهلاك الطاغية وجنده أغلق فصلًا من فصول الكفر والظلم والطغيان والوثنيّة، ما كان أن يُغلق إلّا بمعجزة باهرة فريدة قويّة!

◎ هل فرعون هو رمسيس الثاني؟

كلمة فرعون لقب لملوك مصر في العهد الفرعوني، ككسرى لقب لملوك الفرس، وقيصر لقب لملوك الروم.

ويشتهر أنَّ فرعون الذي عاصر موسى هو رمسيس الثاني، واستدلّ على ذلك بما يأتي:

- إنَّ جثّة رمسيس الثاني تبلغ حوالي خمسة أقدام وسبعة بوصات، وهذا الطول يعد من متوسط الطول عند المصريين في ذلك الوقت.
- إنَّ الفحوصات التي أجريت على جثّة رمسيس الثاني أثبت أنّ سبب الوفاة هو الغرق، وأنَّ هذه الجثّة تم انتشالها من المياه بعد غرقها بفترة قصيرة.

وهذا الاستدلال لا يقطع أنّ صاحب هذه الجثّة هو فرعون الذي أغرقه الله، فمن الوارد جدًّا أن يكون هذا الملك غرق غرقًا عاديًا ثم انتشل بعد موته وحنط كعادة الملوك آنذاك.

وإن فرضنا جدلًا صحة أنَّ فرعون هو رمسيس الثاني! فمن الذي انتشل جثّته؟

يذكر بأنَّ الذين قاموا بانتشال الجثّة مجموعة من أفراد البلاط الملكي ممن نجوا من الغرق، وهذا يخالف ظاهر القرآن الذي يدلّ على أن جميع الجيش الفرعوني هلك ولم يبق فيهم عين تطرف.

فالذي تطمئن له النفس أنَّ رمسيس الثاني ليس هو الفرعون الذي أخزاه الله بالغرق، وأنّ جثّة فرعون الهالك الغارق ليست موجودة الآن.

وأمّا قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ (يونس: ٩٢) لا يدلُّ على بقاء جثّة فرعون إلى يومنا هذا؛ لأنّ الإنجاء قيده سبحانه بالظرف (اليوم)، أي حدث الإنجاء في هذا اليوم فقط، ثم بعد أن حقّق هذا الإنجاء غرضه – وهو إبراز ذلّ الطاغية أمام المستضعفين من بني إسرائيل – جرفت المياه الجثّة بحيث لم تبق لها أي عين أو أثر مبالغة في إهانة فرعون حيًّا وميتًا.

o o o o

الفصل الثاني

موسى وبنو إسرائيل

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ (الصف: ٥)

موسى وبنو إسرائيل

◎ تمْهيد:

هلك الطاغيةُ فرعون وجنده، فتمَّ خلاصُ بني إسرائيل من حقبة من الدهر الطويل، قضوها في مصر كانوا فيها هدفًا لموجاتٍ قاسية من العنف والاضطهاد.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ (الدخان: ٣٠ ـ ٣٣)

وتمّت النعمة على بني إسرائيل، وحقّق الله ما وعدهم به على لسان نبيّه الكليم، من وراثة أرض فرعون الظالم الأثيم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٨) قال ابن كثير: " المراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل فقد استولوا – بعد غرق فرعون وقومه – على الممالك القبطيّة، والبلاد المصريّة." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ

فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ (الأعراف: ١٣٧) أي: وملكنا بني إسرائيل أرض الشام المباركة بعدما كانوا مستذلّين بالخدمة، وتمَّ بذلك ما وعدهم الله به من المُلك والتمكين.

قال الطبري: " كلمته الحسنى (التي تمّت على بني إسرائيل) هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ (القصص: ٥)"

(ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وقال القرطبي: فقد ذُكر أن بني إسرائيل ورثوا جميع الأرض؛ لأنّ من بني إسرائيل داود وسُليمان وقد ملكا الأرض." (القرطبي: ٢٠٠٢)

على كل حال نال بنو إسرائيل هذا النصر والتمكين بصبرهم على أذى فرعون وملئه، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ.

فهل اقتضى بنو إسرائيل الصراط المستقيم بعد هذا النصر والتمكين؟ هذا ما سنعرفه في هذا الفصل الثمين!

◘ حنين بني إسرائيل إلى الوثنيّة التي أُشربوها في مصر:

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ (الأعراف: ١٣٨)

يخبر سبحانه ما وقع من بني إسرائيل أثناء سيرهم صوب الأرض المقدّسة أرض فلسطين، بأنّهم مرّوا على قوم عكوف على أصنام لهم يعبدونها من دون الله تعالى، فطلبوا من موسى – عليه السلام – أن

يجعل لهم إلهًا مثل آلهة هؤلاء القوم، ممّا يدلُّ على أن الوثنيّة الفرعونيّة المصريّة لا زالت عالقة بعقولهم، وأنّ استكبار القبط الوثنيّين عليهم أثر فيهم حتى قلدوهم في ديانتهم، والضعيف يميلُ غالبًا إلى تقليد الأقوياء، وهذا ليس دائمًا أو قاعدة، ولكنه شائع عند من لا مبدأ له.

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)

وإن تعجب فعجب طلبهم ذلك!! ومِمّنْ طلبوه؟!

طلبوه من موسى – عليه السلام – وهو الذي بسببه ناصب فرعون العداء، وتحمل ما تحمل من الصعاب والأعباء؛ لأجل اجتثاث عروق الوثنيّة وغرس أشجار الوحدانيّة؛ لذا جاء ردّ موسى عنيفًا قاسيًا يناسب هذا القول الفاجر الشنيع، فذمّ مقالتهم، ووَسَمَهم بالجهل المُطْبِقِ الذي لا أثارة معه من علم أو فهم بمعنى التوحيد، ووظيفة رسل ربّ العالمين، فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨) أي: " إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والنظير." (محمّد الصابوني)

قال الزمخشري: " تعجبَ من قولهم على إثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكّدَه؛ لأنّه لا جهل أعظم ممّا رأى منهم ولا أشنع." (محمّد الصابوني)

ثم بادرَ موسى بتعليمهم، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٩)، فما فيه هؤلاء

القوم من عبادة الأصنام مرجعه إلى البوار والهلاك، وهو محض الكذب والبهتان الذي لا بقاء له ولا ثبات.

وقال متعجبًا: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ (الأعراف: ١٤٠ – ١٤١) أي: أأطلب لكم إلهًا غير الله المستحقّ للعبادة، والحال أن الله فضلكم على غيركم من أهل زمانكم بالنعم الكثيرة، وهو الله الذي أنجاكم من فرعون الطاغية بمعجزة باهرة، يا ليت شعري.. هل نسيتم ذلك أم تناسيتم؟!

والاستفهام غرضه الإنكار والتعجب، وقُدم المفعول الثاني (غير) للمبالغة في الإنكار.

○ شجرة ذات أنواط:

ما خبرُ هذه الشجرة؟

خرج مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى غزوة حُنين بعض حديثي عهد بالجاهليّة، وأثناء تحرك الرسول بجيشه إلى حُنين، تصادف مرورهم بأحد القبائل العربية، وقد كانت لهذه القبيلة شجرة عظيمة خضراء يقال ذات أنواط، وقد كانوا يأتونها كل عام، فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ولمّا رأى هؤلاء هذه الشجرة وما يفعل عندها قومها، تحركت مشاعرهم لما كانت عهودهم الطويلة به، فقد كانوا حديثي العهد بالجاهليّة، فقالوا: " يا رسول الله، اجعل لنا ذات

أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **سبحانَ اللهِ! هذا كما قال قومُ موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ (الأعراف: ١٣٨) والذي نفسي بيدِه لَتَرْكَبُنَّ سُنّةَ من كان قبلَكم.**" رواه الترمذي: (٢١٨٠)، والحديثُ صحيحٌ.

وسبحان الله! جاء قول رسول الله متشابهًا مع قول موسى، فكلاهما رسولان كريمان خرجا من مشكاة واحدة، ولم يعاقب الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلي هذا الكلام، ولم يعنفهم، لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام، واكتفى بتوضيح التصوّر الصحيح للتوحيد الخالص، وأوضح لهم ما في طلبهم من معاني شركيّة.

◎ توجه موسى – عليه السلام – وبنيّ إسرائيل إلى الأرض المقدّسة:

أكمل موسى – عليه السلام – السير متجهًا إلى الأرض المقدّسة التي أمره الله أن يدخلها ببني إسرائيل، ولمّا اقتربوا منها إذ بها قوم جبارون، عاين بنو إسرائيل هؤلاء القوم العتاة فتلكأوا وتراجعوا، فحثَّهم موسى – عليه السلام – على الدخول عليهم، وإجلائهم من بيت المقدس، وإن تطلب ذلك قتالهم، وغلّف موسى – عليه السلام – أمره لهم بتعديد نعم الله عليهم حتى يكون ذلك دافعًا لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ (المائدة: ٢٠) أي: اذكر يا محمّد

حينما قال موسى لقومه اذكروا نعم الله عليكم، ومنها: أن بعث فيكم أنبياء كرام؛ ليرشدونكم إلى معالم الدين الحنيف، قال البيضاوي: " لم يبعث في أمّة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء." (محمّد الصابوني)، ومنحكم نعمًا لم يمنحها لأهل زمانكم، نحو: تظليلكم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وفلق البحر ونبع الماء، وغيرها.

ثم أمرهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ (المائدة: ٢١) أي: ادخلوا الأرض المقدسة وهي بيت المقدس، قال البيضاوي: " وسميت بذلك لأنّها كان قرار المؤمنين." (محمّد الصابوني) ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ (المائدة: ٢١) أي: " التي وعدكموها على لسان أبيكم إسرائيل، وقضى أن تكون لكم." (محمّد الصابوني)

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢١) أي: لا ترجعوا متقهقرين مدبرين خوفًا من القوم الذين فيها، وفي هذا التعبير القرآني استعارة تمثيليّة بديعة، حيث شبه حال من يرجع عن الجهاد بعد تحقّق أسبابه، بحال من يتراجع سائرًا بظهره إلى الوراء بدلًا من أن يسير بوجهه إلى الأمام، وهذا التعبير يصور قبح الجبن والتخاذل حسًا ومعنى!

قابل بنو إسرائيل أمر موسى بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ﴾ (المائدة: ٢٢)!

وتأمّل – يا رعاك الله –: نادوا نبيّهم باسمه مجردًا (يا موسى)، ممّا يشي بسوء أدبهم، فلم يكلفوا أنفسهم بندائه بصفة النبوّة! واعتذروا أن فيها قوم عتاة مردة، ونسوا قدرة جبار السموات والأرض الذي يذلّ الجبابرة لأهل طاعته.(١)

ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢) قال ابن كثير: " خافوا من هؤلاء الجبارين، وقد عاينوا هلاك فرعون، وهو أجبر من هؤلاء وأشدُّ بأسًا وأكثر جمعًا وأعظم جندًا، وهذا يدلُّ على أنهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة، من الذلّة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وينهضُ من وسط هذا التلكؤ الواهن الخَرِب رجلان من الذين يخافون الله، وأنعم عليهما بالطاعة والإيمان، والشجاعة والإقدام، يحثّان قومَهما على دخول الأرض المقدّسة: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ (المائدة: ٢٣) أي: قالا لهم: لا تخافونهم،

---

(١) **تصحيح:** يذكر أن القوم الجبارين الذين كانوا يسكنون فلسطين كانوا عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لأحد على قتالهم، وهم العمالقة من بقايا عاد.

وهذا القول غير صحيح، إذ لو كانوا كذلك لكان لبني إسرائيل العذر في عدم الدخول عليهم؛ لذا الصحيح أن حجمهم كان عاديًّا بيد أنهم كانوا أولي قوّة وبأس شديد، وسيأتي بحث ذلك أكثر في الحديث عن الإسرائيليّات.

فإنكم إن اقتحمتم عليهم باب المدينة فإن الله سينصركم عليهم ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (المائدة: ٢٣) أي: " اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقًّا مؤمنين."

(محمّد الصابوني)

ويبدو أن خور بني إسرائيل وصل بهم إلى درجة كبيرة لم تمنعهم من الاستجابة إلى هذه النصيحة وحسب، بل قالوا مقالتهم الفاجرة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) قال الصابوني: " وهذا إفراط في العصيان ومع سوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله." (محمّد الصابوني)

فلم يوقرّوا رسول الله وكليمه، حتى نادوه باسمه، ولم يقولوا: يا نبي الله، وقالوا: يا موسى!

ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة، فقالوا: إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد:

أولها: تصريحهم بأنهم غير مطيعين، وقد صدروا الجملة بحرف التوكيد (إنَّ)، ثم حقّقوا النفي بأداة (لن) الدالّة على النفي في المستقبل، أي لن ندخلَها الآن، ولا في المستقبل.

ثانيًا: لمّا أرشدهم موسى إلى ما يحقّق النصر كان جوابهم: إنّا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون.

فسبحانَ من عظم حلمه حيث لم يعالجهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصى ما عاقبهم به أن ردّهم في بريّة التيه أربعين عامًا يظلّ عليهم الغمام من الحرّ، وينزل عليهم المنّ والسلوى.

◎ بنو إسرائيل في التيه:

سمع موسى كلامًا ما كان يتوقع أن يذاع، ولم يدر بذهنه أن يشاع، فلم يملك لسانه إلّا أن دعا عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥) أي: قال موسى عندما سمع هذا الكلام معتذرًا إلى الله، ومتبرئًا من هذه المقالة الفاجرة: يا ربّ لا أملك من هؤلاء القوم إلّا نفسي وأخي، فاحكم بحكمك العادل بيني وبين هؤلاء الخارجين عن طاعتك.

كانت هذه الدعوة من نبيّهم موسى عليهم سببًا مباشرًا في حرمانهم من دخول الأرض المقدسة، وعقابهم بالتيه في الأرض أربعين سنة، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (المائدة: ٢٦)

حزن موسى لحالهم، وظنَّ أنَّه قد يكون تسرع بالدعاء عليهم، وإلصاق صفة الفسق بهم، فسلّاه الله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٦) أي: " فلا تأسف ولا تحزن فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك." (ابن كثير: ١٩٨٧)

زيادة وتفصيل:

١. ما المقصود بالتيه؟

المقصود بالتيه: أنهم كانوا يسيرون في أرض التيه إلى غير مقصد ليلًا ونهارًا، وصباحًا ومساءً، وفي كل مرّة يسيرون ويرتحلون ويذهبون، إذ بهم يرجعون ويحلّون إلى نفس المكان الذي كانوا قد خرجوا منه، قال ابن عباس: " فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وقيل: يحتمل أن تيههم كان افتراق كلمتهم، وقلّة اجتماع رأيهم، فتفرقت منازلهم، وأقاموا وتنقلوا على غير نظام أو اجتماع.

٢. أين كانت أرض التيه؟

المشهور عند المفسرين والمؤرخين أن الأرض التي تاه فيها بنو إسرائيل هي صحراء سيناء، ولم يرد على ذلك دليل قطعي يحدّد المكان الذي وقع فيه هذا التيه هو صحراء سينا أو غيره؛ لذا الصواب التوقف في ذلك وردّ علم ذلك إلى الله تعالى، واعلم أن معرفة مثل هذه الأمور لا تضيف فائدة حقيقيّة لقصّة موسى، وجهلها لا يضرُّ.

٣. لم قدّر الله مدّة التيه بأربعين سنة؟

تنشأ الشعوب على ما تربّت عليه، وارتضعته في مهدها، وبنو إسرائيل نشأوا على الاستبداد الفرعوني، فكان من الصعب أن تتغير نفسيتهم المستذلّة إلّا بعد مثل هذه المدّة، فلعلَّ الحكمة في هذه المدّة أن يموت أكثر هؤلاء الذين نشأوا على الذلّ والهوان، وصارت قلوبهم لا صبر فيها ولا ثبات.

٤. هل كان موسى وهارون مع قومهما في أرض التيه؟

قال بعضُ المفسرين: لم يكونا معهم؛ لأنّ التيه عقوبة.

والذي يظهر أن موسى وهارون كانا مع بني إسرائيل في فترة التيه هذه، أمّا كيف كانا في التيه، والتيه عقوبة؟! قال القرطبي: " سهّل الله الأمر عليهما كما جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

الحاصل: مكث بنو إسرائيل في أرض التيه أربعين سنة، وهم تائهون حيارى لا يهتدون سبيلًا غير مطمئنين أو هادئين.

قال السعدي: " وهذه عقوبة دنيويّة، لعلَّ الله كَفَّرَ بها عنهم، ودفع عنهم بها عقوبة أعظم منها، وهذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون زوال نعمة الموجود، أو دفع عقوبة قد انعقد سبب وجودها أو تأخّر إلى وقت آخر." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

◎ الأمور العجيبة والخوارق الكثيرة التي حدثت لبني إسرائيل في هذه الفترة:

تظليلهم بالغَمام وإنزال المَنّ والسَّلوى:

كان ممّا حدث معهم في هذه الفترة تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوى، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧)

والغَمامُ هو السحابُ الأبيض، وسمي غَمامًا لأنّه يغمُّ السماء أي يسترها، وقد أظلَّهم الله بهذا الغمام في فترة التيه صيفًا ليقيئهم حرَّ أشعة الشمس اللاهبة.

وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، ما المقصود بالمنّ؟

المنُّ اسمُ جنسٍ لا واحد من لفظه، قال ابن كثير: " وقد اختلفت عبارات أهل التفسير في: ما المَنُّ؟ قال ابن عباس: كان المنُّ ينزلُ عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا، وقال السدي: كان يسقط على شجرة الزنجبيل، وقال قتادة: كان المنّ ينزل عليهم في مَحْلّهم سقوط الثلج أشدّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

ثم قال ابن كثير: " والغرض أنّ عبارات المفسرين متقاربة في شرح المنّ، فمنهم من فسّره بالطعام، ومنهم من فسّره بالشراب، والظاهر – والله اعلم – أنه كان ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك ممّا ليس فيه عمل ولا كدّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

أمّا السَّلوى اسمُ جنس جمعي، واحدته: سلواة، قال ابن عباس: " السَّلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

نبع الماء:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ

مَشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ (البقرة: ٦٠)

فقد طلب بنو إسرائيل من نبيّهم موسى – عليه السلام – السُّقيا، فدعا موسى ربَّه، فاستجاب له، وأخرج لهم ماء زُلالًا عذبًا من حجر إذا ضربه موسى ينفجر منه الماء، وحتى تكتمل النعمة لم يكن نبع الماء من عين واحدة، وإنما كان من ثنتين عشرة عينًا، لكلّ سبط من أسباطهم الاثني عشر عين صافية نقية قد عرفوها، فيستقون منها بلا زحام أو مدافعة.

الحاصل: كان المنُّ والسلوى طعامين شهيين بلا كَدّ أو كُلفة، والماء تنبع لهم اثنتا عشرة عينًا يشربون ويَسْتَقون بلا تعب أو مشقة، والسحاب الأبيض يقيئهم حرَّ أشعة الشمس الحارقة القويّة.

قال ابن كثير: " وهذه نعمٌ من الله عظيمة، وعطيات جسيمة، فما رعوها حقّ رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحقّ عبادتها، ثم ضجر كثير منها، وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها ممّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة: ٦١) أي: اذكروا يا بني إسرائيل حينما قلتم لموسى وأنتم تأكلون من المنّ والسلوى: قد مللنا من أكلنا من نوع واحد من الطعام وهو المن والسلوى، فادع لنا الله أن يرزقنا

غير ذلك الطعام فقد سئمناه، ونريد أطعمة ممّا تخرجها الأرض من البَقْل: وهو كل ما تنبته الأرض من الشجر الذي لا ساق له، والقِثاء: وهو الخيار، والفوم: وهو الحنطة، وقيل الثوم، والعدس والبصل وهما معروفان.

فزع موسى من ضجرهم، وتعجب من طلبهم، فقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة: ٦١) فما طلبتم من أطعمة هي رديئة بالنسبة للمنّ والسلوى، فلمّا رأى إصرارهم على ذلك، وعدم اقتناعهم بكلامه، قال لهم: اهبطوا أي بلد من البلدان صغيرة كانت أم كبيرة تجدوا طلبكم وتنالوا غرضكم!

ولم يجبهم موسى إلى سؤال الله هذا؛ لأنّ سؤالهم هذا كان من باب البطر والأشر، الذي لا فائدة فيه ولا عائدة.

وقفة وتأمّل: قال ابن زيد: " كان طعام بني إسرائيل في التيه واحدًا، وشرابهم واحدًا ...، ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة ...، فطلبوا الاستبدال ممّا هو دون ذلك بكثير، فذُمّوا على ذلك فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى، والغي بالرشاد، والشرك بالتوحيد، والسنّة بالبدعة، وخدمة الخالق بخدمة المخلوق، والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار؟!" (ابن القيم: ٢٠٠٢)

⭘ قصّة بقرة بني إسرائيل:

هذه القصّةُ تحكي الكثير من تعنّت بني إسرائيل مع أنبيائهم، وتبرز سجيتهم الرديئة الخبيثة الداعية إلى الفسق والتلكؤ في تنفيذ أوامر ربّهم.

وتبدأ القصّة بأنه قد سقط قتيلٌ بينهم[١]، فتدافعوا فيه، وكادوا أن يقتتلوا فيما بينهم، فاحتكموا إلى نبيّهم موسى، فأمرهم أن يذبحوا بقرة[٢]!!

تعجب بنو إسرائيل من كلام موسى هذا، وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُـزُوًا﴾ (البقرة: ٦٧) أي: أتستهزئ بنا، فنحن نسألُك عن هذا القتيل، وأنت تقول لنا اذبحوا بقرة.

قال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (البقرة:٦٧) " فهو يلجأ إلى الله عائذًا به أن يكون من المستهزئين الجاهلين والنبي لا يفعل ذلك." (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال القرطبي: " فالخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل، فاستعاذ منه عليه السلام." (القرطبي: ٢٠٠٢)

---

(١) ذكرت روايات تحكي سبب سقوط هذا القتيل، ويبدو أنها من الإسرائيليات؛ لذا أعرضنا عن ذكرها صفحًا؛ لعدم تحقّق أي فائدة حقيقيّة من ذكرها.

(٢) ولعلّ سبب اختيار ذبح البقرة من بين سائر الحيوانات تهوين لشأن الحيوان الذي عظّموه وعبدوه وأحبّوه.

تنبيه: قال القرطبي: " في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (البقرة:٦٧) دليل على منع الاستهزاء بدين الله، ودين المسلمين، ومن يجب تعظيمه، وأنّ ذلك جهل وصاحبه مستحقّ للوعيد." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وقال الصابوني: " وقد منع المحقّقون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزاح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلية والتفكه والمزاح." (محمّد الصابوني)

على كل حال: لمّا رأى بنو إسرائيل الجدَّ في موسى طلبوا منه أن يسأل ربّه عن حالها وصفتها، وربما سبب أسئلتهم هذه لتعجبهم من أن تكون هذه البقرة التي ستذبح بأيديهم، ويضرب بها قتيلهم ليعود إلى الحياة، أن تكون بقرة عادية، وكأنهم لقلّة علمهم وفهمهم توقعوا أن تكون بقرة غير عادية ولها صفات غريبة غير طبيعيّة، فقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ (البقرة: ٦٨)

يقول سيد قطب: " والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكّهم أن يكون موسى هازئًا فيما أنهى إليهم! فهم أوّلًا: يقولون: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ (البقرة: ٦٨) وكأنما هو ربّه وحده لا ربّهم كذلك! وكأنّ المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربّه!" (سيد قطب: ١٩٨٦)

" وهم ثانياً: يطلبون منه أن يدعو ربّه ليبيّن لهم " **ما هي**"؟ والسؤال عن الماهيّة في هذا المقام وإن كان المقصود بيان الصفة

إنكار واستهزاء ... ما هي؟ إنها بقرة، وقد قال لهم هذا من أوّل الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة، بقرة وكفى." (سيد قطب:١٩٨٦)

وعلى ما في سؤالهم هذا المُتعنّت من سوء أدبِهم إلا أن أجابَهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ (البقرة: ٦٨) أي لا هي كبيرة في السنّ ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ (البقرة: ٦٨) أي متوسطة بين المسنّة والصغيرة.

وتأمّل – يا رعاك الله –: نكّر موسى كلمة (بقرة) تنزيلًا لهم منزلة المنكرين لتعنّتهم في السؤال، ومحاولتهم التنصّل ممّا أمروا به!

وتأمّل ثانية: لم يقل موسى من أوّل الأمر: إنها بقرة عوان، بل جاء بالوصفين السابقين: لا فارض، ولا بكر، للتعريض بغباوتهم، والتلميح بقلّة فهمهم للأساليب الموجزة، وتماشيًا من نفسيّتهم المتلكئة.

ثم حسن بعد ذلك أن يقول: ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (البقرة: ٦٨) أي: افعلوا ما أمركم الله به، واحذروا من تشدّدكم هذا حتى لا يشدّد الله عليكم.

وكان من المفترض أن يمتثلوا أمر ربّهم، ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء جبلة فيهم لا تفارقهم، فتعنّتوا أكثر، وزادوا في أسئلتهم أكثر وأكثر، فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ (البقرة: ٦٩) أي: قالوا ما لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك؟

أجابهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ (البقرة: ٦٩) أي شديد الصفرة، قال ابن جرير: " الفقوع في الصفرة

نظير النصوع في البياض، وهو شدّتُه وصفاؤه." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

قال الرازي: " فهلا قيل: صفراء فاقعة، وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلتُ: الفائدة فيه التوكيد؛ لأنّ اللون اسم الهيئة، وهي الصفرة، فكأنه قيل شديد صفرتها، فهو من قولك: جدّ جدّه." (الفخر الرازي)

﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ (البقرة: ٦٩) أي تعجبهم.

وقد كان في هذه الأسئلة كفاية، وفي هذه الأجوبة نهاية، ولكنهم لا يفتأون يتساءلون للمرّة الثالثة على التوالي: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ (البقرة: ٧٠)، وكأنهم يقولون له: إن في أجوبتك السابقة تقصيرًا يشقُّ معه التمييز، فسل ربّك ليبيّن حالها، واعتذروا عن ذلك التلكؤ بعذر باهت، وهو: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ (البقرة: ٧٠) أي: إن البقر الموصوف لنا كونه عوانًا وبالصفرة الفاقعة كثير.

واستثنوا وقالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ (البقرة: ٧٠) أي: "سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله." (محمّد الصابوني)

أجابهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ (البقرة: ٧١) أي: ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض، ولا لسقاية الزرع ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ (البقرة: ٧١) أي: سليمةٌ من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ (البقرة: ٧١) أي: ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها، فهي صفراء كلها.

ولمّا أوصد موسى كلّ أبواب اللجاج والتلكؤ، أذعنوا قائلين: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ (البقرة: ٧١) أي: " الآن بيّنتها لنا بيانًا شافيًا لا غموض فيه ولا لبس." (محمّد الصابوني)

وحتى في إذعانهم هذا كانوا لا يزالون متلكئين، قال ابن القيم: " فإن أرادوا بذلك إنك لم تأت بالحقّ قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردّةٌ وكفرٌ ظاهرٌ. وإن أرادوا أنك الآن بيّنت لنا البيان التامّ في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر، فإن البيان قد حصل بقوله: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وإن تعجب فعجب لجاجهم وعنادهم هذا، ففي كل مرّة كان يجيبهم موسى: " إنه يقول"؛ ليشعرهم أنه أمر إلهي متحتم عليهم، وواجب تنفيذه! ومع ذلك كانوا يتلكؤون ويتعنّتون!

ولله دَرُّك يا موسى صابرًا على هذا اللجاج والعناد، يسألونك وتجيبهم، يتعنّتون وتصبر عليهم، يتلكؤون ولا تعجل عليهم فصلى الله عليك وسلم تسليمًا كثيرًا.

ولعلّ سبب إصرار موسى – عليه السلام – على ذبحهم البقرة هو استئصال شأفة العناد والتلكؤ من جذور نفوسهم، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر.

بعدما استنفد بنو إسرائيل أسئلتهم المتعنّتة، راحوا ينقبون عن هذه البقرة غير العادية، وعثروا عليها بعد جهد جهيد وبحث طويل ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ (البقرة: ٧١) أي: ذبح قوم موسى

البقرة الموصوفة لهم بعدما قاربوا أن يتركوا ذبحها، شكًّا منهم في صحة ما أخبر به نبيّهم.

قال ابن كثير: " قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لا يفعلوا – ولم يكن ذلك الذي أرادوا – لأنّهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلّا بعد هذا الجهد، وفي هذا ذمّ لهم، وذلك أنه لم يكن غرضُهم إلّا التعنّت، فلهذا ما كادوا يذبحونها." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ذبح بنو إسرائيل البقرة مكرهين، وضربوا بها قتيلهم مدفوعين، وما أن ضربوا بها قتيلهم حتى قام يشهد على قاتله ثم خرّ ميتًا، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (البقرة: ٧٣) أي: " فقلنا اضربوا هذا القتيل ببعض البقرة المذبوحة، فضربوه ببعضها، فصار القتيل حيًّا، فأخبر عن قاتله." (عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

وهذا من رحمة الله تعالى بهم أن جعل الشاهد في هذه القضية هو القتيل نفسه؛ لأنّ قوم كهؤلاء ما كانوا ليرضوا بشاهد غيره! ولن يقنعهم دليل أوضح منه!!

ولم يُحدّد لهم موسى الجزء المضروب منها، فالمعجزة متحقّقة بأي جزء منها!

وسبحان الله! كان ذبح بقرة سببًا في إحياء حجّة وبرهان.

شاهد بنو إسرائيل هذه المعجزة الباهرة، والتي تحار لها العقول، وتتعجب منها الأذهان، فهل أذهبت هذه المعجزة غيابة اللجاج والتلكؤ عنهم؟!

لا – ويا للأسف – لم تذهب هذه المعجزة غياهب ظلمات اللجاج والعناد عنهم، وصارت قلوب بني إسرائيل بعد مشاهدتها هذه المعجزة الباهرة قاسية حَرِجة كالحجارة بل أشدّ لا تلين ولا يصلها أي خير!!

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٤)

ما وجه الموازنة بين قلوب بني إسرائيل والحجارة؟

قال أبو السعود: " القسوة عبارة عن الغلظة والجفاء والصلابة كما في الحجر، فاستعير لِنُبُوّ قلوبهم عن الأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور." (محمّد الصابوني)

ثم ختم الله ما حكاه عن قصّة بقرة إسرائيل بتهديد شديد بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤)

وهكذا انتهت هذه القصّة حاكية فصلًا من فصول تلكؤ بني إسرائيل ولجاجهم والتوائهم وفسقهم!! وشغبهم على أنبيائهم!! فعليهم من الله ما يستحقون!!

قال ابن كثير: " وهذه القصّةُ تضمّنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله." (ابن كثير: ١٩٨٧)

◘ نزول التوراة:

قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ (الأعراف: ١٤٢)

قال هراس: " يخبر الله في هذه الآيات عن ابتداء التشريع الموسوي، وأنه سبحانه أنجز لموسى – عليه السلام – ما كان قد وعده به من إعطائه كتابًا مشتملًا على كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في شؤون دينهم ومعاملاتهم، فأمره أن يصوم ثلاثين يومًا يعطيه عند انقضائها التوراة، فيقال: إنه استاك في آخر يوم فيها كراهة أن يناجي الله – عزّ وجلّ – وفمُه متغيرٌ." (محمّد هراس)

فأمره الله أن يمسك عشرًا أخرى فكملت أربعين ليلة، والحكمة من تأخير موسى هذه المدّة أربعين ليلة: حتى يستعد موسى لميقات ربّه جيدًا أوّلًا، وأن يتشوّق موسى وقومه لما سينزل عليهم ثانيًا؛ وليكن لوقعها أثرها العظيم فيهم ثالثًا.

على كل حال: لمّا عزم موسى على الذهاب للميقات استخلف على شعب إسرائيل أخاه هارون؛ ليسير بهم على إثره ليلحقهم به، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢) أي: قال موسى لهارون: اخلفني في بني إسرائيل إلى رجوعي، وأصلح أمرهم، واحملهم على طاعة الله، واحذر من طريق المفسدين أن تسلكه مثلهم، وكأن موسى استشرف ما سيقع في نفوس قومه!

ولمّا وصل موسى إلى الميقات المحدّد قبل قومه، قال الله تعالى له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٨٣) أي: لِمَ سبقتهم وتقدمتهم وخلفتهم وراءك؟

قال موسى: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ (طه: ٨٤) أي: هم قريبون مني، وقد تقدّمتهم بشيء يسير، وهم على أثري يلحقون بي، وبيّن سبب تقدمه ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ (طه: ٨٤) أي: عجلت فسبقتهم كي ترضى عني.

○ سؤال الرؤية:

كلّم الله سبحانه موسى التكليم الثاني[1]، وقد سمعه – أيضًا – بدون ترجمان ومن وراء حجاب، فاشتاقت نفسه الشريفة أن يجمع إلى ذلك التكليم فضيلة الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) بأن تجعل لي من القدرة ما يجعلني أتمكن من النظر إليك، وأتحمل تجليك، و(أرني) فعل أمر، ياء المتكلم مفعول أوّل، والمفعول الثاني محذوف أي: ذاتك، ولم يذكر لأنّه معلومٌ، وزيادة في التأدّب مع الله تعالى.

فأجيب من قبل الربّ – جلّ وعلا – بما يفيد استحالة وقوع ذلك في هذه النشأة، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ (الأعراف: ١٤٣) أي: أجابه

(١) المشهور أن الله كلم موسى مرّتين المرّة الأولى في الوادي المقدّس طوى، وهذه المرّة الثانية.

الله تعالى لن تستطيع أن تراني في هذه الدنيا؛ لأنّ البنيّة البشريّة لا قدرة لها ولا طاقة لها بذلك، ثم أحاله إلى قدرة الجبل ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ (الأعراف: ١٤٣) " يعني إذا طاق الجبل ذلك، وثبت عندما أتجلّى له فأنت تطيق ذلك."

(محمّد هراس)

وفي هذا الاستدراك تسلية لموسى وتلطف معه كبير في الخطاب، وتعظيم لأمر الرؤية.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ (الأعراف: ١٤٣) أي: فلمّا ظهر نور الله اندك الجبل وتفتت وانهد ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ (الأعراف: ١٤٣) أي: سقط موسى مغشيًا عليه من هول ما شاهد ورأى.

فلمّا أفاق موسى من غشيته لهج لسانه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) أي: " أنا أوّل المؤمنين من قومي بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلّا هَلَكَ." (ابن جرير الطبري:٢٠٠٢)

عند ذلك صار موسى مؤهّلًا لتلقي التوراة، فقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤) أي: قال الله لموسى: أنا اخترتك على أهل زمانك بالرسالة والتكليم بلا واسطة، فخذ ما أعطيتك من فضل النبوّة والحكمة، واشكر ربك عليها، واصطفاء موسى هذا كان في

أهل زمانه، فإبراهيم كان قبله وهو أفضل منه، ومحمّد كان بعده وهو أفضل منهما عليهم الصلاة والسلام.

قال القرطبي: " ولم يقل على الخلق؛ لأنّ في هذا الاصطفاء أنه كَلَّمَهُ وقد كَلَّمَ الملائكة، وأَرْسَلَهُ وأَرْسَلَ غيره، فالمراد ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ المُرْسَل إليهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٤٥) أي: وكتبنا له في التوراة كل ما يحتاجه بنو إسرائيل لدينهم من مواعظ وأحكام مبيّنة الحلال والحرام.

قال أبو السعود: " والآية مسوقة لتسليته – عليه السلام – من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحدًا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها." (محمّد الصابوني)

ثم قال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ (الأعراف: ١٤٤) أي: خذ التوراة بعزم وجدّ واجتهاد، وبنيّة صادقة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ (الأعراف: ١٤٥) أي: وأمر بني إسرائيل أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها.

إشكال: كيف قال تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ مع أنهم مأمورون بجميع ما فيها؟

قال الأنصاري: " معنى "بأحسنها" بِحَسَنِها وكلها حَسَنٌ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر، وفعل الخير أَحْسَنُ من ترك الشرّ، أو أن فيها حسنًا وأَحسن، كالقود والعفو، والانتصار والصبر، والمأمور به والمباح، فأمروا بما هو الأكثر ثوابًا." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٥) أي: " سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذبين رسلي."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

زيادة وتفصيل:

١. ما المقصود بالتوراة؟

التوراة لغة: كلمةٌ عبرانيّةُ الأصل، تعني الشريعة أو الناموس، وقيل: هي عربيّةٌ بمعنى الضياء والنور.

التوراة اصطلاحًا:

قال أحمد أمين: " وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيرًا للدلالة على كل الكتب المقدّسة عند اليهود، فتشمل الزبور وغيره، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحيانًا." (أحمد أمين: ٢٠٠٢)

قال هراس: " والتوراة أوّل كتاب سماوي نزل متضمنًا لشريعة كاملة البناء، فإنّ ما نزل قبلها لم يعد أن يكون صحفًا مشتملة على بعض الوصايا والمواعظ، كصحف إبراهيم وما أنزل على إسحاق ويعقوب." (محمّد هراس)

وقد ذكرها القرآن الكريم في مواضع عدّة، وبأوصاف حسنة قويّة نحو: هدى، ورحمة، ونور، وضياء، وذكر، وتمام على الذي أحسن، وتفصيل لكل شيء، وموعظة.

والتوراة التي بين أيدينا الآن مكونة من خمسة أسفار: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر اللاويين، وسفر العدد، وسفر التثنية، بالإضافة إلى سفر يوشع بن نون، وأسفار الملوك الأربعة، والتَّلْمود.(١)

وهذه أعظم كتب اليهود المقدّسة والتي شكلت ثقافة اليهود.

٢. متى أنزل الله التوراة؟

الظاهر أن نزول التوراة كان في فترة التيه، وعقب الحوادث العجيبة التي وقعت لبني إسرائيل في التيه من: نبع الماء، وإنزال المنّ والسلوى، وتظليلهم بالغمام، وحادثة البقرة، أمّا عبادتهم للعجل كانت أثناء ذهاب موسى للميقات كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) " والتَّلْمود مجموعة من المناقشات الدينيّة الأولى، مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة، فيه القوانين اليهوديّة من قانون عقوبات وقوانين مدنيّة، وبعبارة أخرى: فيه تحديد العلاقات الدينيّة والدنيويّة، يسجل أفكار اليهود في حياتهم وتقاليدهم في نحو ألف عام، ويمزج مزجًا تامًّا نواحي الشعب الخلقيّة بنواحيهم الدينيّة." (أحمد أمين)

وهو يتكون من جزئين: متن، وشرح. ويسمى المتن: المشناق أي المعرفة، ويسمى الشرح: جمارًا أي الإكمال.

٣. بِمَ تميزت التوراة؟

تميزت التوراة بأنها الكتاب الثاني بعد القرآن من حيث الشمول وتفصيل الأحكام، وأن الله كتبها بيده، قال ابن كثير: " ففي الصحيح أنّ الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ من الآثام، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

٤. هل سمع أحد من بني إسرائيل كلام الله تعالى في المرّة الثانية غير موسى؟

يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ (البقرة: ٧٥)

ذهب بعض العلماء إلى أن السبعين الذين اختارهم موسى للذهاب إلى ميقات الله سمعوا كلام الله كما سمع موسى، ولمّا سمعوا التوراة حرّفوها. واختار ابن جرير هذا القول.

قال القرطبي: " من قال إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ وأذهب بفضيلة موسى واختصاصه بالتكليم، وقال السدي وغيره: لم يطيقوا سماعه واختلطت أذهانهم ورغبوا أن يكون موسى يسمع ويعيده لهم، فلمّا فرغوا وخرجوا بدلت طائفة منهم ما سمعت من كلام الله على لسان نبيّهم موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ

ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٦)" (القرطبي: ٢٠٠٢)، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

٥. هل التوراة غير الألواح؟

قيل: إن الألواح غير التوراة، وقد أُعطيها موسى قبل التوراة، والصحيح أن الله أنزل الألواح وفيها التوراة، والله أعلم.

٦. ما ماهية الألواح؟

قال ابن كثير: " كانت الألواح من جوهر نفيس."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

ويبدو أن ما ذكره ابن كثير – رحمه الله – من الإسرائيليّات، وسيأتي بحث ذلك أكثر في الإسرائيليّات الواردة في قصّة موسى إن شاء الله تعالى.

◎ موقف بني إسرائيل من التوراة:

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] (البقرة: ٦٣)

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[2] (الأعراف: ١٧١)

قال ابن كثير: " قال ابن عباس وغير واحد من السلف: لمّا جاء موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوّة وعزم، فقالوا: انشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فرجعوا مرارًا، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلّة أي غمامة على رؤوسهم، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلّا سقط هذا الجبل عليكم، فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشقّ وجوههم، فصارت سنّة لليهود

---

(١) قال القفال: " إنما قال ميثاقكم ولم يقل مواثيقكم؛ لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم، كقوله: " ثم يخرجكم طفلًا " أي: يخرج كل واحد منكم طفلًا."

(محمّد الصابوني)

(٢) قال الصابوني: " إنما خصَّ الله المتقين بإضافة الموعظة إليهم، فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير."

(محمّد الصابوني)

إلى اليوم، يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال ابن جرير: في تفسيره قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ اختلف أهل العربية في تأويل ذلك: فقال بعض (نحاة) أهل البصرة: هو ما استغنى بدلالة الظاهر المذكور عمّا ترك ذكره له، وذلك أن معنى الكلام: ورفعنا فوقكم الطور، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم بقوّة وإلّا قذفناه عليكم." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

◎ تحريف التوراة:

جاءت التوراة من ربّ العالمين نقية صافية شاملة لكلّ ما يحتاج إليه بنو إسرائيل ثم حُرِّفَتْ، قال تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥) فأخبر الله سبحانه وتعالى بما وقع من أحبار اليهود الذين يتلون التوراة ويسمعونها جليًا، ثم يحرّفونها من بعد أن عقلوها.

فكيف وقع هذا التحريف؟

وقع التحريف من أحبار اليهود السوء بجعلهم الحرام حلالًا، والحلال حرامًا اتّباعًا لأهوائهم.

ما حكم التوراة الموجودة حاليًا؟

تنوعت آراء علماء المسلمين في التوراة الموجودة حاليًا على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: التوراة كلها أو أكثرها مغيرّة مبدلّة، والتوراة التي بين أيدينا الآن ليست التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

القول الثاني: " التبديلُ وقع في التأويل، لا في التنزيل، وهذا مذهب البخاري، قال في صحيحه: يحرّفون: يَزيلون. وليس أحد يَزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى، ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله، وهذا ما اختاره الرازي في تفسيره." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

القول الثالث: " أنّه قد زيد فيها وغُيِّرَ ألفاظ يسيرة، ولكن أكثرها باقٍ على ما أُنزل عليه، والتبديل في يسير منها جدًّا، وممّن اختار هذا القول ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح)."

(ابن القيم: ٢٠٠٢)

ونختم هذه النقطة بهذا التساؤل: لِمَ لَمْ يحفظها الله من التحريف مثل القرآن؟!

التوراةُ كتابٌ سماويٌّ كالقرآن، ولكن أَوْكَلَ الله حفظها إلى أحبار اليهود، ويا للأسف ضيعوا هذه الأمانة، ولم يحفظوها قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ (المائدة: ٤٤)، بينما القرآن لم ينله مثل هذا التحريف والتبديل؛ لأنّ الذي تكفل بحفظه هو الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

○ عجل السامري:

ذكرنا أن موسى قد ذهب لميقات الله تعالى، وقبل أن ينصرفَ موسى من الميقات أخبره سبحانه بما حدث في قومه من الفتنة وإضلال السامري لهم بعبادة العجل، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٥) أي: قال الله تعالى لموسى: إنّا قد ابتلينا قومك بعد فراقك إياهم بعبادة العجل، وإن السامري قد أضلّهم.

فما قصّة عجل السامري هذا؟

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ (الأعراف: ١٤٨)

يذكر الله تعالى ما وقع في بني إسرائيل من أمر عجيب حينما ذهب موسى – عليه السلام – لميقات ربّه، حيث عمد رجل منهم يقال له السامري[١]، فأخذ الحُلي الذي استعاره بنو إسرائيل من قوم فرعون، فصاغ منه عجلًا.

هل تحوّل هذا العجل إلى عجل حقيقي؟

ذكر أن العجل تحوّل إلى عجل حقيقي من دم ولحم وعصب، ولكن الصواب: لم يكن هذا العجل عجلًا حقيقيًّا، بل كان تمثالًا جمادًا على شكل عجل، قال ابن كثير: " وكانت الريح إذا دخلتْ من دُبرِهِ خرجت من فمِهِ، فيَخورُ كما تَخور البقرةُ، فيرقصون حوله ويفرحون." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

على كل حال: صَدَّقَ جزءٌ كبيرٌ من بني إسرائيل السامري، فعبدوا هذا العجل، بل أحبّوه حبًّا عظيمًا لم يحبّوا شيئًا مثله قطّ، قال هراس: " فانظر إلى أي حدّ بلغ هؤلاء القوم من الحمق والسفاهة؟! إنّ هذا العجل قد صنع أمامهم من الحُلي التي كانت لديهم، فلو كانت عندهم مَسْكة من عقل لمّا انحدروا إلى عبادته، وهم يرون أنه لا يكلمهم، ولا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضررًا ولا نفعًا، ولكن إلفهم بالوثنيّة في مصر أعماهم، وكانت ملكة التقليد للمصريين لا تزال متمكّنة من نفوسهم، وقد رأينا كيف أنهم حينما عبروا البحر بتلك

(١) ذُكر أن السامري هذا كان شخصًا من ضلّال بني إسرائيل، وقيل: كان من زعماء بني إسرائيل، وقيل لم يكن من بني إسرائيل بل من قوم يعبدون البقر، وقيل: غير ذلك، وكل هذه الأقوال مظنونةٌ وغير محقّقة.

الصور الخارقة لم يلبثوا أن قالوا لموسى حين مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (الأعراف: ١٣٨)" (محمّد هراس)

هكذا استخف السامريُّ بعقول بني إسرائيل، فصدّقوه حتى أنهم قالوا: ﴿هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ (طه: ٨٨) أي: " فنسى موسى ربّه عندنا وذهب يتطلبه وهو ههنا!" (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال ابن القيم: " ومن عجيب أمرهم: أنهم لم يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى إلى الشرك ....، ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى ضالًّا مخطئًا، فقالوا: ﴿فَنَسِيَ﴾"

(ابن القيم: ٢٠٠٢)

وقد سخّف تعالى عملهم هذا موضحًا بطلان ما ذهبوا إليه من إلهيّة هذا العجل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (طه: ٨٩) أي: أفلا يعلمون أن هذا العجل يعجز أن يردّ لهم جوابًا، ولا يستطيع أن يدفع عنه وعنهم ضررًا، ولا يقدر على أن يجلب لهم نفعًا، فكيف يكون إلهًا؟! والاستفهام للتوبيخ والتقريع.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٨) فوصف سبحانه في هذه الآية عبدة العجل بأنهم ظالمون، فمن

الذي ظلموه؟ ظلموا أنفسهم حينما وضعوا الأشياء في غير موضعها، وأعظم ذلك كانت عبادتهم العجل.

وتأمّل: جاء التعبير القرآني بلفظ (كانوا ظالمين) المفيد للدوام والاستمرار، وللإشعار بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم، قبل هذا الاتّخاذ وبعده، وإن كان قد صدر عنهم بغير طلب منهم، إلّا أنهم قد سبق أن قالوا لنبيّهم:﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ (الأعراف: ١٣٨)

وقد وسمهم تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥١) وهذا الذمّ وإن كان موجه إلى اليهود الذين عاصروا النبي إلّا أنه فيه ذمّ لفعل أسلافهم.

وقد يقال: لِمَ يذمّ الخلف بفعل السلف؟

يذمّ الخلف بفعل السلف؛ لأنهم يسيرون على نهج سلفهم، فذمّهم الله لمخالفتهم للرسول ومحذرًا أن يحلّ بهم ما حلّ بأسلافهم.

على كل حال: حدث كل هذا في غياب موسى وقيام هارون بأمرهم، رأى هارون هذا المنكر الفظيع، وهذا الكفر البواح الخطير، نهض – عليه السلام – يمحضهم النصح، ويحذّرُهم عاقبة كفرهم هذا قائلًا لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ (طه: ٩٠) أي: قال هارون: يا قوم إنما اختبرتم بهذا العجل، وإن ربّكم الرحمن لا غيره المستحقّ للعبادة.

وتأمّل – يا رعاك الله –: جمع هارون بين اللفظين الكريمين (الربّ والرحمن) لجذبهم للحقّ أوّلًا، وللتنبيه على أنهم متى تابوا قبل توبتهم الرحمن الرحيم ثانيًا!

لم يستمع هؤلاء الكفرة الفجرة الأغبياء عبدة العجل والأوهام إلى هارون، وخالفوه وحاربوه، بل وكادوا أن يقتلوه، فحبّ العجل قد تمكن من قلوبهم.

قال قطب: " ما كاد بنو إسرائيل يرون عجل من ذهب يخور حتى نسوا ربّهم الذي أنقذهم من أرض الذلّ، وعكفوا على عجل الذهب، وفي بلاهة فكر، وبلادة روح قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ (طه: ٨٨)، وراح موسى يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا، وقد نسي موسى الطريق إلى ربّه، وضلَّ عنه، وهي قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتّهامهم لنبيّهم بأنه غير موصول بربّه حتى ليدخل الطريق إليه، فلا يهتدي ولا ربّه يهديه، وهذا العجل لم يكن حيًّا يسمع قولهم ويستجيب نداءهم؛ لأنّه جسد لا حياة فيه، فهو في درجة أقل من درجة الحيوانيّة، ولقد نصحهم هارون، ولكنهم بدلًا من الاستجابة التووا وتملصوا من نصحه." (سيد قطب: ١٩٨٦)

وتأخذ القصة منحًى جديدًا بعودة موسى – عليه السلام – وهو الذي كان يعرف خبرهم، فلمّا رأى موسى ما رأى تأسف غاية الأسف على مجهوده الضائع في غرس التوحيد في نفوسهم، وحزن حزنًا عميقًا على اتّباعهم كل ناعق بتخاريف وأوهام!!

وقال موبخًا لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ (طه: ٨٦) أي: ألم يعدكم ربّكم بإنزال التوراة والتي فيها الهدى والنور، والاستفهام للتوبيخ ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ (طه: ٨٦) أي: أطال عليكم الزمن حتى نسيتم هذا العهد ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ (طه: ٨٦) أي: أم أردتم بصنيعكم هذا أن يحلّ عليكم سخط الجبّار وانتقامه، فأخلفتم موعدي.

قال أبو حيان: " وكانوا قد وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنّة موسى عليه السلام، ولا يخالفوا أمر الله أبدًا، فأخلفوا موعده بعبادتهم العجل." (محمّد الصابوني)

وقال موسى: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: قال موسى لقومه: بئسما فعلتم بعد غيبتي عنكم حيث عبدتم العجل! ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: " أعجلتم عن أمر ربّكم وهو انتظار موسى حين يرجع من الطور، والاستفهام للإنكار" (محمّد الصابوني)

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: ألقى موسى الألواح لِما أصابَه من شدّة الأسف والغضب، وقد ألقاها غضبًا على قومه الذين عبدوا العجل[1].

---

(١) عندما أخبر الله – عزَّ وجلَّ – موسى أن قومه فتنوا بعده وعبدوا العجل لم يلق الألواح، بينما لما رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فليس المعاين كالمخبر.

عاين عبدة العجل من موسى شدّة الغضب عليهم، وحنقه الشديد بسبب فعلهم، اعتذروا إليه بما هو غير صحيح، فقالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (طه: ٨٧)

قال ابن كثير: " اعتذروا بالعذر البارد، يخبرونه عن تَورعهم عمّا كان في أيديهم من حُلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خروجهم من مصر ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي ألقيناها عنّا." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ما قصّة هذا الحلي؟

ذُكر: أن نساء بني إسرائيل طَلِبْنَ من نساء القبط ليلة الهجرة من مصر أن يعيرهنَّ من حليهن بذريعة أن اللية عيد بني إسرائيل، ووعدهنَّ بإعادته، فلمّا وقعت الهجرة أخذنه معهن، وكأن بني إسرائيل تلاوموا فيما بينهم على ذلك، فكان ما صار، ويا سخف عقولهم تورعوا عن الأمر الحقير من حمل زينة القبط، وفعلوا الأمر الخطير من عبادة العجل.

وهذه الرواية من الإسرائيليّات والله أعلم بصحتها، على كل حال توجه موسى إلى أخيه هارون معاتبًا آخذًا شعره بيمينه ولحيته بيساره يجّره إليه قائلًا: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾﴾ (طه: ٩٢ ـ ٩٣)

وسبب لوم موسى أخاه هارون كان بسبب أمر قد ظنَّه أن هارون قد ارتكبه، فما هذا الذي ظنَّه موسى أنه معصية من هارون؟

اختلف المفسرون فيه، والأقرب هو: عدم سير هارون بمَنْ أطاعه في أثر موسى على ما كان عهده إليه؟

ولمّا كان هارون قد اجتهد في اتّباع وصية موسى ولم يقصرّ، فقد دافع هارون عن نفسه قائلًا: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (طه: ٩٤) أي: خفت يا ابن أمَّ أن أسير بمَنْ أطاعني على أثرك وأخلف عبدة العجل، فتقول لي قد فرّقت شمل بني إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه: ٩٤) أي: لم تحفظ قولي لك.

وقال أيضًا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: يا ابن أمّ لا تُسئ إليّ حتى يُسرّ الأعداء بي، ويشمتوا بإهانتك إليّ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٠) أي: ولا تجعلني في عداد الظالمين من عبدة العجل بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير.(١)

على كل حال: يبدو أن موسى قد شعر بما قاساه أخوه هارون من عناد هؤلاء الكفرة المجرمين، وتيقن من براءة ساحة أخيه هارون من

---

(١) هارون هو شقيق موسى لأبيه وأمه، فَلِمَ قال: " يا ابن أمَّ "، ولم يقل: يا ابن أب؟

قال هارون: يا ابن أمّ؛ وذلك ليكونَ خطابُه أرقَّ وألطف عند أخيه، واستعطافًا له على نفسه برحم الأمّ، وإلّا فهو شقيق موسى من أبيه وامه.

تهمة التقصير في نهيهم أو الإنكار عليهم، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥١) أي: " اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنّي ظننته مقصرًا في الإنكار عليهم، وإن لم يقع منه تقصيرًا، أي اغفر لأخي إن قصّر." (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال الزمخشري: " استغفر لنفسه ممّا فرط منه إلى أخيه، ولأخيه ممّا عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة، وطلب ألّا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة." (محمّد الصابوني)

ولم يعتب الله عليه في جرّه هارون وقبلها إلقاء الألواح؛ لأنّه حمله على ذلك الغضب لله تعالى.

ثم أقبل موسى على رأس الفتنة السامري مغاضبًا حانقًا، وهو يقول: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ (طه: ٩٥) أي: ما حملك على ما صنعت؟! وغرض موسى من هذا السؤال الإنكار الشديد!

فما كان من هذا المجرم السامري إلّا أن أقرَّ أمام موسى بجريمة إغوائه بني إسرائيل، فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[١]

---

(١) يورد المفسرون هنا: أن السامري بعد أن صاغ عجله ألقى عليه حفنة تراب قد أخذها من أثر فرس جبريل حينما رآه يوم غرق فرعون، فلمّا ألقاها على عجله خار كما يخور العجل الحقيقي، وهذا الكلام به نكارة واضحة، وغرابة عجيبة؛ لأنّه =

(طه: ٩٦)، ويبدو أنَّ الذي شجع السامري على ذلك ما قد لاحظه من انجذاب شعب بني إسرائيل إلى الوثنيّة، وذلك عندما قالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ (الأعراف: ١٣٨) فسولت له نفسه صنع هذا العجل!

عقوبة السامري وعبدة العجل:

ما كانت جريمة كهذه أن تمرَّ دون عقاب لداعيها ومتبعيها، فكان عقاب داعيها السامري عقوبتين في الدنيا والآخرة: أمّا عقوبة الدنيا كانت النفي له والطرد، والأمر بعدم مخالطته، وعدم تكليمه، فقد دعا موسى عليه: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾ (طه: ٩٧) أي: اذهب من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ (طه: ٩٧) أي: إذا اقترب منك أحد صرخت: لا تمسّني لا تقترب مني، فكما مسست ما لا يجوز لك مسّه، لن تمسّ بعد ذلك ما كان يجوز لك مسّه جزاء وفاقًا.

قال القرطبي: " وهذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألّا يخالطوا، وقد فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خلفوا." (القرطبي: ٢٠٠٢)

أمّا العقاب الأُخروي: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ (طه: ٩٧) أي: عذابك في الآخرة متحقّق ولن يغيب عنك.

=يرسخ كرامات لولي الشيطان السامري، ويمنحه كرامة، وهو لا كرامة له، فيجب أن تنزه الآية عن ذلك، والله أعلى وأعلم.

هذا كان عذاب السامري، وأمّا عبدة العجل كان عقابهم في الدنيا أن غضب الله عليهم بتعجيله عذابهم، وألبسهم الذلة والهوان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٢)

قال ابن جرير: " قد قرأ أبو قلابة هذه الآية ....، قال هي – واللهِ – لكل مفتر إلى يوم القيامة." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

شعر عبدةُ العجل بخطأ فعلهم، وأيقنوا بتغرير السامري بهم، فَسُقِطَ في أيديهم، وندموا وحين مندم، فقالوا: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٩) قال ابن كثير: " وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عزّ وجلّ."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

ثم أخبر الله تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه، بتوبته عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الأعراف: ١٥٣)

ولم يقبل الله توبة عابدي العجل إلّا بالقتل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٥٤)

فجعل الله توبتهم على لسان نبيّهم أن يقتل بعضهم بعضًا، ذكر المفسرون: أخذ بنو إسرائيل السيوف والخناجر، وأصابتهم ظلمة شديدة، حتى لا يرى القريب قريبه، فحصدوا بعضهم حصدًا، ولمّا انجلت الظلمة عنهم، رأوا سبعين ألف قتيل! فكان كل من قتل منهم كانت له توبة، وكذلك كل من بقي كانت له توبة!

وهذه الرواية غريبة جدًّا، والصواب: الله جعل توبتهم على لسان نبيّهم أن يقتل بعضهم بعضًا، ولكن الله البرّ الرحيم عفا عنهم، ورفع عنهم عقوبتهم.

وماذا فعل موسى بالعجل؟

حرّقه موسى تحريقًا، وفرّقه في اليم تفريقًا، مبالغة في نزع أي تلق به في نفوس بني إسرائيل ولو بسيطًا، ثم قرّر الحقيقة الثابتة: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ (طه: ٩٨)

هكذا انتهت قصة عجل السامري بإعلان التوحيد الخالص لله تعالى!

◎ تجديد العهد من موسى وبني إسرائيل مع الله تعالى:

شَكَّلَتْ هذه الواقعة الأليمة نكسة كبيرة عصفت بالتوحيد في بني إسرائيل، وكان لوقعها الأليم على موسى وخيار بني إسرائيل، أن اختار موسى سبعين من قومه للذهاب إلى الله للتوبة ممّا كان من سفهائهم في عبادة العجل، قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ (الأعراف: ١٥٥)

○ رجفة الأرض بالسبعين:

لمّا جاء موسى ومعه السبعون للميقات رجفت بهم الأرض وصعقوا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ (الأعراف: ١٥٥) قال موسى عندئذ: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ﴾ (الأعراف: ١٥٥) أي " قال موسى على وجه التضرّع والاستسلام لأمر الله: يا ربّ لو شئت أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت فإنّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء" (محمّد الصابوني)

وقال موسى متضرّعًا: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ (الأعراف: ١٥٥) " معناه الدعاء والطلب أي لا تهلكنا (بما فعل السفهاء منا)." (القرطبي:٢٠٠٢) ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ (الأعراف: ١٥٥) أي: ما هذه إلّا فتنتك اختبارًا وامتحانًا ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾ (الأعراف: ١٥٥) أي: تضلُّ بها من تشاء، وتهدي بها من تشاء ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٥)

أجاب الله موسى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ (الأعراف: ١٥٦) أي: " قال الله: عذابي أصيب من أشاء من عبادي، أمّا رحمتي فقد عمّت خلقي كلهم." (محمّد الصابوني)

قال أبو السعود: " وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع، ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانًا بأن الرحمة

مقتضى الذات، وأمّا العذاب فبمقتضى معاصي العباد." (محمّد الصابوني)

﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ (الأعراف: ١٥٦) أي: " سأجعل هذه الرحمة خاصّة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي، ويعطون الزكاة ويصدّقون بجميع الكتب والأنبياء." (محمّد الصابوني)

لِمَ رجفت الأرض بالسبعين؟

قد اختلفت تعليلات العلماء في سبب الرجفة على قولين مشهورين:

القول الأوّل: بسبب طلبهم من موسى رؤية الله، قال ابن جرير: " إنهم لمّا أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ (البقرة: ٥٥)، فإنك قد كلمته فأرناه! ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ (البقرة: ٥٥) (أي: أرسل الله عليهم نارًا فأحرقتهم وأهلكتهم)؛ فماتوا فقام موسى يدعو ربّه: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ (الأعراف: ١٥٥)، أي قد سفهوا أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

القول الثاني: بسبب تقصيرهم في الإنكار على عبدة العجل، ولم ينهوهم النهي اللازم، فعن ابن عباس وقتادة: " إنهم أخدتهم الرجفة لأنّهم لم يزايلوا قومهم في عبادة العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول

بقول موسى: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ (الأعراف: ١٥٥)، وقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ (الأعراف: ١٥٥) أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ....، وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ (الأعراف: ١٥٥ – ١٥٦) أي تبنا ورجعنا.

وقال علي: " إنما سميت اليهود لأنّهم قالوا إنّا هدنا اليك."[١]

(ابن كثير: ١٩٨٧)

◎ قصّة موسى مع الخَضِر عليهما السلام:

قصَّ القرآن قصة بديعة بها حكم مفيدة، إنها قصة موسى مع الخَضِر، فمن الخَضِر؟ وما قصته مع موسى؟

هذا ما سنعرفه عمّا قريب بإذن الله تعالى.

وتبدأ قصة موسى والخَضِر بما رواه سعيد بن جبير، فقد قال: قلتُ لابن عباس: إنّ نوفًا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخَضِر ليس هو موسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدوُّ الله[٢]. حدثنا أبي بن كعب **عن النبيِّ – صلى الله عليه وسلم – قام**

---

(١) وقيل: سمي اليهود من الهوادة أي المودة، أو نسبة إلى يهوذا ابن يعقوب الأكبر.

(٢) " قال النووي: قوله (كذب عدوّ الله) قال العلماء: هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله لا إنه يعتقد أنه عدوّ الله حقيقة، إنما قاله مبالغة في إنكاره =

موسى النبيُّ خطيبًا في بني إسرائيلَ فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا، فَعَتَبَ اللهُ عليه إذ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فقال له: فأوحى اللهُ إليه أنَّ عبدًا من عبادي بمجمعِ البحرينِ هو أعلمُ منكَ."

(رواه البخاري:(٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

ومن هنا تبدأ القصّة:

حيث تاقت نفسُ موسى بعد أن أخبره تعالى بذلك إلى لقاء هذا العبد الصالح، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ (الكهف: ٦٠) أي: قال موسى لفتاه يوشع بن نون[١] لا أزال ماشيًا حتى أبلغ مجمع البحرين، للقاء هذا العبد الصالح، وإن كلفني ذلك أن أسير زمنًا طويلًا حتى أصل إلى هذا المكان.

وتأمّل – وفقك الله للحقّ –: موسى كليم الله، ومن أولي العزم من الرسل، وثالث الخلق فضلًا بعد محمّد وإبراهيم – عليهم السلام –

= قوله، لمخالفته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس لشدّة إنكاره، وحال الغضب تطلق الألفاظ ولا تراد بها حقائقها، والله أعلم." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

(١) لِمَ سمى القرآن يوشع بن نون بفتى موسى؟

قال ابن الجوزي: " سُمي فَتاهُ لأنّه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخدمه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

لمّا سمع بالخَضِر لم يقرّ له قرار حتى يلقاه، ويتابعه، ويتعلّم منه، لله درُّه نبيًّا متواضعًا حريصًا على العلم!!

" قال ابن القيم: إنَّ الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة بيده، وكلّمه منه إليه إنه رحل إلى رجل عالم يتعلّم منه ويزداد علمًا إلى علمه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

لله درُّك يا موسى نبيًّا كريمًا!!

زيادة وتفصيل:

١. **هل الخَضِر نبي أم هل رجل صالح؟**

اختلف العلماء في ذلك على قولين: القول الأوّل: الخَضِرُ نبيٌّ، القول الثاني: الخَضِرُ رجلٌ صالحٌ.

وأكثر أهل العلم أنه نبيٌّ وهو الصحيح.

٢. **هل الخَضِر مازال حيًّا حتى الآن؟**

النووي وابن الصلاح قالا إنه حيٌّ، وذهب البخاري وإبراهيم الحربي وغيرهما إلى أنه مات، وهذا هو الصحيح إن شاء الله، وذلك لما يأتي:

قال صلى الله عليه وسلم: " أرأيتُكم ليلتُكم هذه، فإنَّ على رأسِ مئةِ سنةٍ منها لا يبقى من هو على ظهرِ الأرضِ أحدٌ." (رواه البخاري: (٦٠١)، ومسلم: (٢٣٥٧) باختلاف يسير، والنسائي: (٥٨٧١) واللفظ له)، وقوله – صلى الله عليه وسلم – في يوم بدر: " اللهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلكَ هذه العصابةَ من أهلِ الإسلامِ فلا تعبدُ في الأرضِ أبدًا." (رواه مسلم: (١٧٦٣)، وأحمد: (٢٠٨) باختلاف

يسير)، قال العدوي: فلو كان الخَضِر حيًّا موجودًا لمّا صحَّ هذا النفي." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

وقال العدوي: " ولم يذكر من ذهب إلى أنه حيٌّ شيئًا صحيحًا ثابتًا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجلّ ما ذكروه أحاديث ضعيفة أو حكايات عن السلف لا تقوم بها حجّة، وركزوا اهتماماتهم على تفنيد أدلة من قال إنه مات."

(مصطفى العدوي بتصرف: ٢٠٠٢)

٣. ما المقصود بمجمع البحرين؟

ذُكرت أقوال كثيرة تحدد هذين البحرين من حيث: ما اسمهما؟ وأين مكانهما؟ ولكن لم يثبت منها شيء؛ لذا الصواب ردّ ذلك إلى علم الله وحده.

اهتداء موسى لمكان الخَضِر:

قال ابن عباس: " **قال (موسى): يا ربِّ وكيف به؟ قيلَ له: احملْ حوتًا في مَكتلٍ** (أي: وعاء يضع فيه المسافر زاده) **فإذا فَقَدَهُ فهو ثَمَّ** (أي: هناك)، **فانطلقَ وانطلقَ بفتاهُ يوشعَ بن نون.**"

(رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

فقد حدد الله تعالى علامة مكان الخَضِر فقد الحوت المملح (السمكة) الذي في المكتل، سار موسى وفتاه سيرًا طويلًا وهما يحملان المكتل، فلمّا وصلا إلى صخرة نام عندها موسى، ولمّا أوشك يوشع أن ينام إذ بالحوت المملح (أي: السمكة المملحة) في المكتل يضطرب ويخرج منه، ويسقط في البحر، وسار فيه بطريقة عجيبة حيث سار في

الماء كالسرب في الأرض، أي: " لا يَلْتَئِمُ الماء بعده، فجعل لا يَسْلُكُ فيه طريقًا إلّا صار ماءً جامدًا." (ابن كثير: ١٩٨٧)

اندهش يوشع من هذا الأمر العجيب، ولكنه نسي أن يخبر موسى بأمر السمكة وسيرها الغريب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ (الكهف: ٦١) ويوشع بن نون هو الناسي، وقد أضاف الله النسيان إليهما من باب التغليب.

بعد هذه الاستراحة السريعة والقيلولة القصيرة أكمل موسى وفتاه سيرهما، فلمّا جاوزا الصخرة التي ناما عندها، شعر موسى بالجوع والتعب، **قال ابن عباس: " ولم يجدْ موسى النصبَ حتّى جاوزَ حيثُ أمرَهُ اللهُ.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))، فقال موسى لفتاه يوشع: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ (الكهف: ٦٢) أي هيّئ لنا طعامًا، وفي هذا تواضع من موسى إذ جلس يأكل مع خادمه، عندئذ تذكر يوشع أمر الحوت العجيب، فأخبره أنَّ الحوت خرج من المكتل عند الصخرة التي ناما عندها، وأنه نسي أن يخبره بذلك حينما استيقظ ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ (الكهف: ٦٣) أي: الشيطان هو الذي أنساني ذكر ذلك لك[1]، ثم أخبره يوشع عن سير الحوت العجيب في الماء: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (الكهف: ٦٣)

---

(١) حيث الشرّ وأسبابه ينسب إلى الشيطان وكذلك النقص.

عندها سُرَّ موسى ونسي وَعْثاء السفر، ولم يعنف يوشع، وقال بفرح وسرور: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ (الكهف: ٦٤) فهذا هو المكان الذي نبحث عنه، حيث كانت علامة مكان الخَضِر أنه يوجد حيثما يفقد السمكة المملحة الموجودة في المكتل، وسُرعان ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ (الكهف: ٦٤) أي: رجعا يتتبعان آثارهما لئلا يخطئان الطريق، والقَصص لغة هو متابعة الأثر.

موسى يقابل الخَضِر عليهما السلام:

وصل موسى إلى الصخرة فوجد رجلًا مُسَجّى (أي مُغَطّى) بثوب، فإذ هو الخَضِرُ الذي أنعم الله عليه بالنبوّة، وعلمه من العلم الذي استأثر به، " **قال ابن عباس: فَسَلَّمَ موسى فرَدّ عليه، فقال: وأنَّى بأرضِكَ السلامُ؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيلَ؟ قال: نعم، أتيتُكَ لتعلّمني ممّا عُلِّمتَ رَشَدًا، قال: يا موسى إنّي على علمٍ من علمِ اللهِ عَلَّمَنيهِ اللهُ لا تَعْلَمُهُ، وأنتَ على علمٍ من اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أَعْلَمُهُ.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

ثم بيّن له موسى سبب مجيئه، وهو مرافقتُه للزيادة من العلم، حيث قال: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ (الكهف: ٦٦)

وتأمّل – يا رعاك الله –: هذا الأدب والتواضع في هذا السؤال من موسى عليه السلام!!

حيث بدأ بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنَّه لن يتبعه إلّا بإذنه، ثم سأله سؤالًا غاية في الأدب والتواضع: هل يناسبك مصاحبتي، ويخفُّ عليك ذلك؟ سأل ذلك وهو من هو!

وأخيرًا لم يجيء ممتحنًا ولا متعنّتًا بل جاء متعلمًا مستزيدًا علمًا إلى علمه.

لله درّ موسى صاحب خُلق وأدب وعلم!!

سمع الخَضِرُ هذا الطلب المؤدب، فأَعْلَمَهُ الخَضِر أنه من الراجح ألّا يصبر على ما يشاهد؛ لأنّ العلم الذي عَلَّمَهُ الله للخضر غير العلم الذي يَعْلَمَهُ موسى، ولمّا كان حرص موسى على التعلم قويًّا، أكدّ له أنه سيكون صابرًا، ولن يخالف له أمرًا، وافق الخَضِر على المصاحبة، وأكد على شرطهما، وهو ألّا يسألَه موسى عن شيء حتى يبادره شرحًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ (الكهف: ٦٧ ـ ٦٩)

أحداث الرحلة المباركة:

بعدما سنّا الشروط، وبذلا الوعود بدأت رحلتهما المباركة، قال ابن عباس: " **فانطلقا يمشيانِ على ساحلِ البحرِ، فمَرَّتْ بهما سفينةٌ**

كلموهم أنْ يحملوهم، فعرفوا الخَضِر وحملوهم بغيرِ نَوْلٍ (أي: أجرة)، **فلمّا ركبا في السفينةِ جاءَ عصفورٌ، فوقعَ على حرفِ السفينةِ، فنقرَ في البحرِ نقرةً أو نقرتينِ قال له الخَضِرُ: يا موسى ما نقصَ علمي وعلمُكَ من علمِ اللهِ إلّا مِثْلُ ما نقصَ هذا العصفورُ بمنقارِهِ من البحرِ، إذْ أخذَ الفأسَ فنزعَ لَوحًا، قال فلم يفجأْ موسى إلّا وقد قلعَ لَوحًا بالقَدومِ، فقال له موسى: ما صنعتَ؟ قومٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ عمدتَ إلى سفينتِهِم فخرقتَها لتغرقَ أهلَها لقد جئت شيئًا إمرًا**[1]**، قال:** ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ (الكهف: ٧٢ – ٧٣) **فكانتِ الأولى من موسى نِسيانًا."** (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

قال قطب: " لقد نسي موسى ما قاله لصاحبه، أمام هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي! والإنسان قد يتصوّر المعنى الكلّيّ المجرد، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والأنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعًا غير التصوّر النظري، فالتجربة العمليّة ذات طعم آخر غير التصوّر المجرد، وها هو ذا موسى الذي نُبّه من قبل إلى أنه لا يستطيع صبرًا على ما لم يحط به خبرًا، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة، وبذل الوعد

(١) إمرًا: أي: " عجيبًا منكرًا لا يتفق مع أحكام الشريعة فيما أعلم."

(عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

وقبل الشرط، وها هو ذا يصطدمُ بالتجربة العمليّة لتصرفات الرجل فيندفع مستنكرًا." (سيد قطب: ١٩٨٦)

وقال صاحب الانتصاف: " وما قاله موسى يدلّ على أن ما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحقّ، وأنه قال حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾ (الكهف: ٧١)، ولم يقل: (لتغرقنا) فنسى نفسه، واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحد فيها يقول: (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد، وتلك حالةُ الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه." (محمود المصري: ٢٠٠١)

قبل الخَضِر اعتذار موسى وتابعا السير، قال ابن عباس: " **فلمّا خَرجا من البحرِ مرّوا بغلامٍ يلعبُ مع الصبيانِ، فأخذَ الخَضِرُ برأسِهِ فَقَلَعَهُ هكذا وأومأ سفيانُ** (راوي الحديث) **بأطرافِ أصابعِهِ كأنَّهُ يقطفُ شيئًا.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

وصَدَقَ ظنُّ الخَضِر، فلم يستطع موسى صبرًا، فأنكر عليه ذلك إنكارًا شديدًا، فاقَ إنكاره الأوّل، وقال: ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ﴾ (الكهف: ٧٤) أي: قتلت نفسًا لم تعمل الذنوب و﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ (الكهف: ٧٤) وبدون سبب. ﴿لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ (الكهف: ٧٤) أي: لقد جئت شيئًا منكرًا لا يتماشى مع أحكام مع أعلمه من شريعتي.

لم يجب الخَضِر عن هذا التساؤل المُستنكَر من موسى، وإنما ذكَّره بالشرط الذي أَصلاه، فاعتذر موسى ثانية، وقطع على نفسه شرطًا إضافيًّا ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ (الكهف: ٧٦) فقد أعذرتني مرّة تلو المرّة.

ما أبداه موسى من حرص على المرافقة جعل الخَضِر يوافق على استمرار المصاحبة، وتابعا سيرهما، **قال ابن عباس:** ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ (الكهف: ٧٧) **مائلًا – أومأ بيدِهِ هكذا وأشارَ سفيانُ** (راوي الحديث) **كأنَّهُ يمسحُ شيئًا إلى فوق – قال: قومٌ أتيناهم فلم يُطعمونا ولم يضيفونا، وعمدتَ إلى حائطِهِم لو شئتَ لاتّخَذْتَ عليهِ أجرًا."**

(رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

نهاية الرحلة:

وكانت هذه الفارقة، فلم يبق لموسى عذر، ولم يعد للصحبة مجال! فأعلن الخَضِرُ حينها انتهاء الرحلة قائلًا: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾ (الكهف: ٧٨)

بقيت نفسُ موسى متشوقة ومتشوفة إلى معرفة سِرّ ما رأى، فطمأنَّ الخَضِرُ موسى قائلًا: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾ (الكهف: ٧٨)

وشرع الخَضِر يفسّر لموسى ما أُشْكل عليه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ (الكهف: ٧٩) أي: كان أمام هؤلاء البحارة المساكين ملك ظالم يأخذ السفن الصالحة من أصحابها ظلمًا وعدوانًا، فرأفة بهم أردت أن أعيبها بثقبها لئلا يأخذها.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ (الكهف: ٨٠)، فهذا الغلام عندما يكبر سيصبح كافرًا، والأبوان كانا متعلقين به جدًّا، وحتى لا يحملهما هذا التعلق الشديد على متابعته على كفره قتلته، ثم قال: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ (الكهف: ٨١) أي: ينعم الله عليهما بولد أزكى من هذا الغلام الكافر، وهما يكونان أرحم به منه.(١)

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ

---

(١) قال القرطبي: ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قطعًا من الأكباد، ومن سلَّم للقضاء، أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء." (القرطبي: ٢٠٠٢)

﴿تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ (الكهف: ٨٢) فكان تحت الجدار كنز ثمين ليتيمين، وإذا انهدم هذا الجدار انكشف الكنز الثمين، وللؤم هذه القرية فمن المتوقع أن يمنعوا الغلامين من الحصول عليه، فأراد الله أن يحفظ لهما كنزهما بفضل صلاح أبويهما.

والعجيب أنّ الله سبحانه لم يذكر لهذين الغلامين صلاحًا، وإنما ذكر صلاح الأبوين فقط، وفي هذا دليل قوي على أنّ صلاح الآباء يحفظ الأبناء، **قال صلى الله عليه وسلم: " الصلاحُ من اللهِ، والأدبُ من الآباءِ.**" (رواه البخاري في الأدب المفرد: (٩٢))

قال محمود الوراق:

رَأَيْتُ صَلاحَ المَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ * * * وَيُعديهِمُ داءُ الفَسادِ إذا فَسَد

يُعَظَّمَ في الدُّنيا بِفَضْلِ صَلاحِهِ * * * وَيُحْفَظُ بَعدَ المَوْتِ في الأهلِ وَالوَلَد

انتهتِ الرحلةُ المباركةُ بفوائد جمّة، جعلت الرسول – صلى الله عليه وسلم – يتمنّى لو استمرّت أكثر، حيث قال: " **ودّدنا أنَّ موسى كان صَبَرَ فَقَصَّ علينا من خبرِهما.**" (رواه البخاري: (٣٤٠١)، ومسلم: (٢٣٨٠)، والترمذي: (٣٤١٩))

◎ قصّة قارون:

جبلت النفوسُ على حبّ الدنيا والركون إليها والحرص عليها، فقد زيَّنَها اللهُ تعالى لتكون لعباده اختبارًا.

قال صلى الله عليه وسلم: "**إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مُسْتخلِفكم فيها فينظُرُ كيف تعملونَ، فاتَّقُوا الدُّنيا واتَّقوا النساءِ، فإنَّ أوّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساءِ**." (رواه مسلم: (٢٧٤٢))

فمن ركن إليها خسر، ومن اشترى نفسه ببيعها ربح، وصدق تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (العنكبوت: ٦٤)

وممّن غَرق في بحورها، وافتتن بزينتها الكاذبة قارون، والذي قصّ الله خبره في قرآنه الكريم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ (القصص: ٧٦) أي: لم يكن قبطيًّا وإنما كان من عشيرته وقيل: كان ابن عمه، فبغى عليهم، ولم يذكر القرآن صور بغي قارون، وإنما أشار إلى بغيه إشارة عامّة.

وسبب بغيه قيل: حسدًا لموسى وهارون حيث إنهما لم يبقيا له من الأمر شيئًا، وقيل كبرًا بكثرة ماله، فقد كانت أمواله تضيق بها الخزائن العظام من كثرتها، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦) أي خزائنه وقيل مفاتيحها ليثقل حملها على الجماعة الكثيرة من الرجال والدوابّ،

والآية فيها تصوير بديع للثراء الفاحش الذي وصل إليه قارون! وأعد قراءة هذه الكلمات: كنوز، مفاتيح، النوء، العصبة، وأولي القوة، ستشعرك بثرائه، وفي نفس الوقت بتكبره!

نصح قوم قارون:

كان قارن يزهو بهذا المال بطرًا واختيالًا وتكبرًا وعلوًّا، ممّا دفع قومه أن يقولوا له: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾ (القصص: ٧٦) أي: لا تفرح فرح الباطر الأشر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦) أي: إن الله لا يحبُّ الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على نعمه، ويتكبرون بها على عباده.

وأكملوا نصحه ببيان الصراط السوي في التعامل مع هذه الحياة الدنيا ومفاتنها، فقالوا: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ (القصص: ٧٧) أي: " اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات" (محمّد الصابوني)

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ (القصص: ٧٧) قال الحسن: " لا تضيع حظك من دنياك في تمتيعك بالحلال وطلبك إياه."

(محمّد الصابوني)

قال ابن تيمية: ما أمر الله عباده بأمر إلّا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر إمّا إفراط فيه وإمّا تفريط فيه.

ولا يفتأ قومه يثيرون فيه روح البذل والعطاء للمحتاجين والبؤساء، ويحذرونه الفساد في الأرض بأن يجعل همّه تكديس الأموال فوق

الأموال، والبخل في إنفاقها في مصالح المعوزين والفقراء حيث قالوا: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧) أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك، ولا تطلب بهذا المال التطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي، فإن الله لا يحب الذين يفسدون في الأرض.

ونصحهم هذا لقارون: " يُمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضّه على هذا ويكلفه إياه تكليفًا؛ كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها." (سيد قطب: ١٩٨٦)

رفض قارون النصيحة:

قارون الباطر الأشر ما ارْعَوى عن تكبره!! وما انتهى عن تفاخره!! وقال لهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص: ٧٨) أي: " أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإنّ الله تعالى، إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقّه ولمحبته لي." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وهذا ظنُّ كثير من المغرورين أمثال قارون يظنّون أن الله يعطيهم من الأموال، والأولاد، وسائر متاع الدنيا؛ لكرامتهم عليه، أو معزّتهم عنده، لا أيها المغرورون ليس الأمر كما تظنّون فقد أخطأتم، وخاب رجاؤكم، بل نفعل بكم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاءً، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)

قال قتادة: مُكِرَ – والله – بالقوم في أموالهم وأولادهم يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، وعن ابن مسعود **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللهَ قسّم بينكم أخلاقَكم كما قسّم بينكم أرزاقَكم، وإنَّ اللهَ يُعطي الدنيا من أحبّ ومن لا يحبّ، ولا يُعطي الدينَ إلّا لمن أحبّ، فمن أعطاهُ اللهُ الدينَ فقد أحبّه."** (رواه أحمد: (٣٦٧٢)، والحاكم: (٧٣٠١)، والبيهقي: (٥٥٢٤))

ويا للأسف دنيا هؤلاء الأشرين البطرين قد يَنخدع بها كثير ممّنْ يُعَظّم زهرة الحياة الدنيا، وقد يتمنّونها ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ (القصص: ٧٩) أي: لمّا خرج قارون بزخرف زينته على قومه انبهر ضعاف الإيمان بما رأوا من أبهة وزينة، فقالوا متحسرين: يا ليت لنا مثل هذا الغني، إن قارون لذو نصيب وافر من الغنى والنعيم!

فيا للعجب!! أغلب الناس يقيسون الخلق بالمال؛ لأنّ هذا المال محبوب للنفوس!

والأعجب أنك تجد الناس يعظمون الغني حتى وإن كانوا لا ينتفعون بماله!!

على كل حال: " لمّا سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد، والألباء، قالوا لهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ (القصص: ٨٠) أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجلّ وأعلى." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقالوا لهم: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ (القصص: ٨٠)

أي: " وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة، وهذه الهمّة الساميّة إلى الدار الآخرة العالية، عند النظر إلى زهرة الحياة الدنيا الدنيّة إلّا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لُبّه وحقّق مراده." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

لطيفة: قال ابن كثير: " وقد أحسن ما قاله بعض السلف: إنَّ الله يحبّ البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

هلاك قارون:

قال قطب: " وعندما تبلغ فتنة الزينة ذُروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حدًّا للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيمًا، ويجيء المشهد الحاسم الفاصل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص: ٨١)[1] " (سيد قطب: ١٩٨٦)

(١) الخسف هو: النزول في الأرض، يقال: خسف المكان خسفًا إذا غار في الأرض، وخسف الله بفلان الأرض، إذا غيبه فيها.

" هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ (القصص: ٨١) فابتلعته وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقًا."

(سيد قطب: ١٩٨٦)

وقد جاء في الصحيح: " **بينما رجلٌ يَمشي في حُلَّةٍ تُعجبُهُ نفسَهُ، مُرَجّلٌ جُمّتَهُ، إذ خسفَ اللهُ به الأرض، فهو يتجلْجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ.**" (رواه البخاري: (٥٧٨٩)، ومسلم: (٢٠٨٨) باختلاف يسير.)

هوت الدنيا الزائفة! وسقطت زينتها الخادعة! وانكشف أقنعة الغفلة! ورجعت العبرة! فكان المشهد الأخير:

﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1] (القصص: ٨٢)

قال الزمخشري: " ومعناه: أن القوم تنبهوا على خطئهم في تمنّيهم منزلة قارون وتندموا." (محمّد الصابوني)

---

(١) معنى (ويكأن): قال الزمخشري: " ويكأن كلمتان: (وي) مفصولة عن (كأن)، وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم." (محمّد الصابوني)

ومعنى قوله: ﴿**وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ**﴾ أي: ألم تر أن الكافر مثل قارون لا يفلح في الدنيا والآخرة، فقد كان قارون كافرًا.

وقال سيد قطب: " وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنّوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة، وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رِضى الله." (سيد قطب: ١٩٨٦)

قال قطب: " ويسدلّ الستار على هذا المشهد، وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان، ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)" (سيد قطب: ١٩٨٦)

قال الصابوني: " الإشارة (بتلك) للتفخيم والتعظيم، أي: تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدي، ونجعلها للمتقين." (محمّد الصابوني)

ثم يخبر تعالى: أن من جاء يوم القيامة بحسنة يضاعفها برحمته أضعافًا مضاعفة، بينما من جاء بسيئة لا يجزى إلّا بسيئة واحدة، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

(القصص: ٨٤)

زيادة وتفصيل:

١. ما المقصود بـ (العلوّ والإفساد) في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ﴾؟

قال سفيان الثوري: " العلوّ في الأرض التكبر بغير حقّ، والفساد أخذ المال بغير حقّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

٢. ما المقصود بـ (العاقبة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؟

قال الضحاك: " الجنّة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ويُحْسَنُ تذكير الناس في هذا المقام بالجنان، فعندما تحيا صورة الجنان في نفوسهم سيندفعون لمرضاة الله، ويرغبون فيما عنده تعالى، وترخص الحياة الدنيا.

o o o o

الفصل الثالث

خاتمة القصّة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ (القصص: ٨٣)

خاتمة القصّة

⊚ تمْهيد:

أتمَّ موسى – عليه السلام – مهمته أحسن إتمام، وأكملها أحسن إكمال، فلم يبق إلّا أن يختار جوار ربّه بعد حياة طويلة وشاقّة قضاها وهو يدعو للتوحيد، ويؤسس لحياة جديدة قوامها الخير والعدل والحريّة، وفي هذا الفصل نعدد بعضًا من فضائله عليه السلام، ونذكر خبر وفاته، ونعرج إلى الزيف الذي لحق بسيرته الطاهرة بسبب الروايات الإسرائيليّة المنكرة، ثم نختم هذا الفصل بالعبر المستفادة من قصّته عليه الصلاة والسلام.

⊚ فضائل موسى عليه السلام:

موسى – عليه السلام – من أعظم أنبياء بني إسرائيل، بل هو أعظمُهم على الإطلاق، وهو كليم الله حيث كلمه الله تعالى مرّتين بدون ترجمان من وراء حجاب، وهو من الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم الدين، وهو رسول كريم من أولي العزم من المرسلين، وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، مثنيًا عليه ثناءً بليغًا، منها:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ (مريم: ٥١ – ٥٢)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤)

وقوله **تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ (الأحزاب: ٦٩)

وهذه الآية الأخيرة لها قصّة جميلة حميدة، فعن أبي هريرة، **قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كانت بنو إسرائيلَ يغتسلونَ عُراةً ينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، وكان موسى – صلى الله عليه وسلم – يغتسلُ وحدَهُ، فقالوا: واللهِ ما يمنعُ موسى أنْ يغتسلَ معنا إلّا أنَّه آدَرُ** (أي: انتفخت خصيته، لتسرب سائل من غلافها)، **فذهبَ مرّةً يغتسلُ، فوضعَ ثوبَهُ على حجرٍ، ففرَّ الحجرُ بثوبِهِ، فخرجَ موسى في أثرِهِ، يقولُ: ثوبي يا حجرُ، حتّى نظرتْ بنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: واللهِ ما بموسى من بأسٍ، وأخذَ ثوبَهُ فطفقَ بالحجرِ ضَرْبًا.** قال أبو هريرة: واللهِ إنَّه لَنَدَب بالحجرِ ستَّةٌ أو سبعةٌ ضربًا بالحجرِ."[(١)]

(رواه البخاري: (٢٨٧))

وفي هذه القصّة إشارةٌ بليغةٌ إلى شغب بني إسرائيل على أنبيائهم عليهم من الله ما يستحقون.

---

(١) قال ابن حجر: " قوله **(يغتسلون عراة):** ظاهره أن ذلك كان جائزًا في شرعهم، وإلّا لما أقرّهم موسى على ذلك، وكان هو عليه السلام يغتسل وحده أخذًا بالأفضل." (ابن حجر: ٢٠٠١)

وعندما استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمّدا على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فلطم المسلم وجه اليهودي، فلمّا مَثَلا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: " **لا تُخيروني على موسى، فإنَّ الناسَ يُصعقون يومَ القيامةِ، فأصعقُ معهم، فأكونُ أوّلُ من يفيقُ، فإذا موسى باطشٌ جانبَ العرشِ، فلا أدري أكان ممّن صُعِقَ فأفاقَ قَبلي أو كان ممّن اسْتثنى اللهُ.**"(١)

(رواه البخاري: (٢٣٠٩))

ولمّا بلّغ ابن مسعود الرسول قول القائل هذه قسمةٌ ما أريد بها وجه الله قال: " **لقد أُوذِيَ مُوسى بأكثرَ من ذلك فصَبَرَ.**"

(رواه البخاري: (٦١٠٠)، ومسلم: (١٤١-١٠٦٢))

وقد ثبت في أحاديث الإسراء أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " **أتيتُ على مُوسى ليلةَ أُسرِيَ بي عند الكثيبِ الأحمرِ وهو قائمٌ يُصلّي في قبرِهِ.**" (رواه مسلم: (٢٣٧٥)، والبيهقي: (٣٧٨))

---

(١) وهذا فيه فضل وشرف كبيران في هذه الجزئية لموسى، إلّا أن إبراهيم كان أفضل منه، ومحمّد هو أفضل الخلق أجمعين عليهم الصلاة والسلام، وإنما قال – صلى الله عليه وسلم – ذلك من باب التواضع والهضم.

إشكال: يستشكل كيف رأى محمّد موسى – عليهما السلام – في قبره يصلي ورآه في السماء؟

قال الفضيل بن عياض: يحتمل أن رؤيته لموسى في قبره، وعند الكثيب الأحمر، كانت قبل صعوده إلى السماء، وفي طريقه إلى بيت المقدس، ثم وجد موسى قد سبقه إلى السماء.

وفي حديث الإسراء أيضًا: " **ثم صعد بي حتّى أتيتُ السماءَ السادسةَ، فاستفتحَ، قيلَ: من هذا؟ قال جبريلُ. قيلَ: من معك؟ قال: محمّدٌ. قيلَ: وقد أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم. قال: مرحبًا به، فنعم المجيءُ جاءَ. فلمّا خلصتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فرَدَّ. ثم قال: مرحبًا بالأخِ الصالحِ والنبيِّ الصالحِ، فلمّا تجاوزتُ بَكى، قيلَ له: ما يُبكيكَ؟ قال: أبكي لأنّ غلامًا بُعِثَ بَعدي يدخُلُ الجنّةَ من أمّتِهِ أكثرَ ممّن يدخلُها من أمّتي.**"

(رواه البخاري: (٣٨٨٧)، ومسلم: (١٦٤))

إشكال آخر: هل بكاء موسى كان حسدًا؟

قال ابن حجر: " قال العلماء: لم يكن بكاء موسى حسدًا، معاذ الله، فإن الحسد في ذاك العالم منزوعٌ عن آحاد المؤمنين فكيف بمن اصطفى الله تعالى، بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفيع الدرجة بسبب ما وقع من أمّته من كثرة المخالفة المقتضية لنقيص أجورهم المستلزم لنقيص أجره؛ لأنّ لكل نبي مثل أجر كل من اتّبعه، ولهذا كان من اتّبعه من أمّته في العدد دون من اتّبع نبيّنا –

صلى الله عليه وسلم – مع طول مدّتهم بالنسبة لهذه الأمّة." (ابن حجر: ٢٠٠٢)

وقال: " وأمّا قوله " **غلام**" فليس على سبيل النقص، بل على سبيل التنويه بقدرةِ الله وعظيم كرمه إذ أعطى لمن كان في ذلك السنّ ما لم يعطه أحدًا قبله ممن هو أسنّ منه، وقد وقع من موسى من العناية بهذه الأمّة من أمر الصلاة ما لم يقع لغيره."

(ابن حجر: ٢٠٠٢)

ولمّا فُرِضَ على محمّد – صلى الله عليه وسلم – وأمّته خمسين صلاة في اليوم والليلة مرّ بموسى، فقال: " **بما أمرتَ؟ قال: أمرتُ بخمسينَ صلاةً في كلِّ يومٍ، قال: إنَّ أمّتَكَ لا تستطيعُ خمسينَ صلاةً كلِّ يومٍ، وإنّي عالجتُ الناسَ وبني إسرائيلَ أشدّ المعالجةِ فارجعْ إلى ربِّك فاسأله التخفيفَ لأمّتِكِ**"

(رواه البخاري: (٣٨٨٧)، ومسلم: (١٦٤))

فلم يزل يتردّد بين موسى وبين الله عزّ وجلّ، ويخفّف عنه في كل مرّة حتى صارت في العمل إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، وفي الأجر خمسون، فجزى الله عنا محمّدا وموسى – صلى الله عليهما وسلم – خير الجزاء.

وعن ابن عباس قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **عُرضتْ عليَّ الأممُ، فرأيتُ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – ومعه الرُّهيطُ، والنبيَّ ومعه الرجلُ والرجلانِ، والنبيَّ ليسَ معه أحدٌ، إذ رُفِعَ لي سَوادٌ عَظيمٌ،**

فَظَنَنْتُ أنَّهم أمّتي، فقيلَ هذا موسى - صلى الله عليه وسلم - وقومُهُ."[1] (رواه مسلم: (٢٢٠))

وقال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله وطلب أن يكون معه وزيرًا، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيًّا كما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم:٥٣)" (ابن كثير: ٢٠٠٣)، حتى قيل: أمنّ الناس على أخيه هو موسى حين شفع في أخيه هارون فأُوحى إليه.

وقد أورد الله قصّته في القرآن مرارًا وتكرارًا، مطولة ومختصرة.

وأنزل عليه التوراة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٤)

وكثيرًا ما يقرنُ الله تعالى بين موسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام، وبين كتابيهما، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ (القصص: ٤٨)[2]

---

(١) قال الخن: " وهذا العرض إمّا أن يكون منامًا، ورؤية الأنبياء حقّ، أو يكون يقظة ليلة الإسراء، أو غير ذلك." (مصطفى الخن: ١٩٩٢)

(٢) المقصود من قوله: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي التوراة والقرآن.

وفي سورة الأحقاف: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[١] (الأحقاف: ٣٠)

وفي بدء الوحي عندما ذهب محمّدٌ – صلى الله عليه وسلم – وخديجة إلى ورقة بن نوفل، وقصَّ عليه ما رأى في غار حراء قال: " سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل على موسى." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

◎ وفاة موسى عليه السلام:

◎ فَقْءُ موسى – عليه السلام – عين ملك الموت:

قُبِضَ موسى بعد هارون – عليهما السلام – في فترة التيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **أُرْسِلَ مَلكُ الموتِ إلى موسى – عليهما السلام – فلمّا جاءَهُ صَكّهُ، فرجعَ إلى ربِّهِ، فقال: أرسلْتَني إلى عبدٍ لا يريدُ الموتَ، قال: ارجعْ إليه فقلْ له: يضعُ يدَهُ على مَتنِ ثورٍ فله بما غَطَّتْ يدُهُ بكلِّ شعرةٍ سنةٌ، قال: أيْ ربِّ ثم ماذا؟ قال: ثم**

---

(١) لِمَ لَمْ تذكر الجن عيسى مع أن المقطوع به أن عيسى قد جاء بعد موسى عليهما السلام؟

قال ابن عباس: " إن الجنّ لم تكن تسمع بأمر عيسى." (القرطبي: ٢٠٠٢) وذكر: أن شريعة عيسى كانت مكمّلة ومتمّمة لشريعة موسى؛ لذا لم يُذكر مثل داود وزبوره، فكأنه لم ينزل شيء جديد بعد التوراة غير القرآن، وهذا القول أقرب إلى الصواب، والله أعلم.

الموتُ، قال: فالآنَ، قال: فسأل اللهَ أنْ يدنيَهُ من الأرضِ المقدّسةِ رَمية حجرٍ." (رواه البخاري: (١٣٣٩)، ومسلم: ٢٣٧٢))

قال ابن خزيمة: " أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا: إن كان موسى عرفه فقد استخف به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتصّ له من فقء عينه؟

والجواب: أنَّ الله لم يبعث ملك الموت إلى موسى وهو يريد قبض روحه حينئذ، وإنما بعثه الله اختبارًا، وإنما لطم موسى ملك الموت؛ لأنّه رأى آدميًّا دخل داره بغير إذنه، ولم يعلم أنه ملك الموت وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم إليهم المأكول، ولو عرفهم لوط لمّا خاف عليهم من قومه، وعلى تقدير أن يكون عرفه، فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القِصاص بين الملائكة والبشر؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتصّ له؟" (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

قال النووي: " أجاب العلماء على هذا بأجوبة: أحدهما: أنه لا يمتنع أن يكون موسى – عليه السلام – قد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة، ويكون ذلك امتحانًا للملطوم، والله سبحانه يفعل في خلقه ما يشاء ويمتحنهم بما أراد، الثاني: أن هذا على المجاز، والمراد أن موسى ناظره وحاجه فغلبه بالحُجّة، ويقال فقأ فلان عين فلان إذا غلبه بالحُجّة، ويقال: عروت الشيء إذا أدخلت فيه نقصًا، وفي هذا ضعف

لقوله صلى الله عليه وسلم: " **فردّ الله عينه**"، فإن قيل: ردّ حجّته كان بعيدًا." (مصطفى العدوي: ٢٠٠٢)

فائدة: قوله: " فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدّسة رمية حجر." يحتمل احتمالين:

الاحتمال الأوّل: قُبِضَ موسى بعد دخوله الأرض المقدّسة قدر رمية حجر فيها.

أمّا الاحتمال الثاني: لم يدخل موسى الأرض المقدّسة، وإنما طلب أن يدنو منها قدر رمية حجر، ثم قُبِضَ خارجها، والاحتمال الثاني هو الأقوى.

والسؤال هنا: ما الحكمة من عدم طلب موسى قَبْضه داخل الأرض المقدّسة؟

قيل: " لم يطلب دخولها ليعمى موضع قبره لئلا تعبده الجهّال من ملّته." (ابن حجر: ٢٠٠٢)

وقيل: عندما حرم الله بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة، وتركهم أربعين سنة في التيه إلى أن أفناهم الموت فلم يدخلها مع يوشع إلّا أولادهم، فموسى وقبله هارون لم يتهيأ له دخولها لغلبة الجبارين عليها.

وقيل: " لأنّ الأنبياء يدفنون حيث يموتون، ولا ينقلون، قال ابن بطال: وفي هذا نظر؛ لأنّ يوسف قد نقل موسى – عليهما السلام – معه لمّا خرج من مصر." (ابن حجر: ٢٠٠٢)

◎ الإسرائيليّات الواردة في قصّة موسى والتحذير منها:

رويت في قصّة موسى روايات إسرائيليّات منكرة ملأت كتب التفسير، ومنها:

ما ذكر في صفة هؤلاء الجباريّن في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢)

فقد أخرج ابن عبد الحكم عن أبي ضمرة قال: " استظلَّ سبعون رجلًا من قوم موسى في خف رجل من العماليق، ومثل ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن يزيد بن أسلم قال: بلغني أنه رؤيت ضبع وأولادها رابضة في فجاج عين رجل من المعاليق."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

إلى غير ذلك من الروايات التي لا تتفق مع ما أجراه الله تعالى في خلقه، وإذا صحَّ ما ذُكر عن ضخامة هؤلاء الجبّارين لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن دخول الأرض المقدّسة وإجلائهم عنها؛ لذا الصواب أن هؤلاء القوم كانوا طبيعيين في أحجامهم وأجسامهم. وقد ثبت في الحديث " **فكلُّ مَنْ يدخُلُ الجنّةَ على صورةِ آدمَ فلم يَزَلِ الخَلْقُ يُنقُصُ بعدُ حتّى الآنَ.**"[١]

(رواه البخاري: (٦٢٢٧))

---

(١) ومن المعلوم أن طول آدم كان ستين ذراعًا.

قال أبو شبهة: " ومن الإسرائيليّات الظاهرة البطلان والتي وَلع بذكرها بعض المفسرين والإخباريين عند حديثهم عن الجبارين قصّة عوج بن عنق: إنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع، وكان يمسك الحوت فيشويه في عين الشمس، وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه، وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

وهذا كلُّهُ كذب وافتراء، قال العلامة ابن القيم الجوزية بعد ذكره حديث عوج: " وليس العجيب من جرأة من وضع هذا الحديث، وكذب على الله، وإنما العجب ممّن يدخل هذا في كتب العلم من التفسير وغيره، فكل ذلك من وضع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل وأتّباعهم." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

ومن الإسرائيليّات العجيبة ما ذكر عن أعداد بني إسرائيل المقاتلين في فترة التيه والتي أوصلوها إلى ستمائة ألف مقاتل.

قال أبو شبهة: " وممّن أنكر هذا العدد الضخم ابن خلدون وساقَ أدلة على ضعف هذا التقدير، فإن الفرس على عظم دولتهم لم تبلغ جيوشهم قطّ مثل هذا العدد ولا قريبًا منه، وأعظم ما كانت جموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفًا." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

وممّا ذكر من العجائب: أنَّ الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام ونبعت منه اثنتا عشرة عينًا " كان من الجنّة، ولم يكن أرضيًّا، ومنهم من قال كان على هيئة رأس إنسان، ومنهم من قال: كان على هيئة رأس شاة، وقيل: كان طوله عشرة أذرع، وله شعبتان تتقدان في الظلام، إلى غير ذلك من تزايدات بني إسرائيل، وليس في القرآن ما

يدلّ على هذا الذي ذكروه في وصف الحجر، مع أنه لو أريد بالحجر الجنس، وأن يضرب أي حجر ما، لكان أدلّ على القدرة، وأظهر في الإعجاز." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

ومن الإسرائيليّات الكاذبة الواردة في سؤال موسى الرؤية ما قاله البغوي: " في بعض الكتب: إن ملائكة السموات أتوا موسى وهو مغشى عليه فجعلوا يركلونه بأرجلهم، ويقولون يا ابن النساء الحيض، أطمعت في رؤية ربّ العزّة." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " ويرحم الله الإمام الألوسي حيث قال في تفسيره: ونقل بعض القصاصين، أن الملائكة كانت تمرّ حينئذٍ، فيلكزونه بأرجلهم، ويقولون: يا ابن النساء الحيض، أطمعت في رؤية ربّك؟ وهو كلام ساقط لا يعول عليه بوجه، فإنَّ الملائكة – عليهم السلام – تجب تبرئتهم من إهانة الكليم بالوكز بالرجل، والغمص في الخطاب."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

ومن الإسرائيليّات الغريبة ما ذكر عن وصفة الألواح: قال الحسن: " كانت الألواح من خشب، وقال الكلبي: كانت من زبرجدة خضراء، وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر، وقال الربيع: كانت الألواح من برد، وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، ولم يقرأها إلّا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

قال أبو شبهة: " فكل هذه الروايات المتضاربة التي يردّ بعضها بعضًا ممّا نحيل أن يكون مرجعها المعصوم صلى الله عليه وسلم،

وإنما هي من إسرائيليّات بني إسرائيل حملها عنهم بعض الصحابة والتابعين بحسن نيّة، وليس تفسير الآية متوقفًا على كل هذا الذي رووه، والذي يجب أن نؤمن به، أن الله أنزل الألواح على موسى، وفيها التوراة، أمّا هذه الألواح ممّا صُنعت؟ وما طولها؟ وما عرضها؟ وكيف كتبت؟ فهذا لا يجب علينا الإيمان به، والأولى عدم البحث فيه؛ لأنّ البحث فيه لا يؤدي إلى فائدة، ولا يوصل إلى غاية."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨ هـ)

ومن الإسرائيليّات المكذوبة في سبب إلقاء موسى الألواح: ما روي عن قتادة أن موسى ألقى الألواح لمّا رأى من فضيلة أمّة محمّد ولم يكن ذلك لأمّته.

قال ابن كثير: " ظاهر السياق أنه – أي سيدنا موسى – ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول العلماء سلفًا وخلفًا، وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولًا غريبًا، لا يصحّ إسناده إلى حكاية قتادة، وقد ردّه ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالردّ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذّابون، ووضّاعون، وأفاكّون، وزنادقة." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " وصدق ابن كثير فيما قاله، وأرجح أن يكون من وضع زنادقتهم كي يظهروا الأنبياء بمظهر المتحاسدين لا بمظهر الإخوان المتحابين." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

○ قصّة لثغة موسى عليه السلام:

يورد المفسرون قصّة لثغته – عليه السلام – عند تفسيرهم قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧﴾ (طه: ٢٥ – ٢٧)

قال ابن كثير: " قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهمّ بقتله، فخافت عليه آسيا، وقالت: إنه طفلٌ، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهمّ يأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفقهون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلّيّة، وقال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية ولهذا قال فرعون قَبَّحَهُ اللهُ، فيما زعم أنه يعيب به الكليم ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف:٥٢) أي لا يفصح عن مراده ، ويعبر عمّا في ضميره وفؤاده." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

والذي يبدو أن هذه القصّة من روايات بني إسرائيل، وبها نكارة واضحة في سياقها، فطفل صغير أمْسَكَ جمرة ثم وضعها في فمه، دونما يشعر بحرارتها وهي في يده لأمر عجيب، وإذا سلّمنا بصحتها، فأين أثر هذه اللثغة في كل حوارات موسى؟!

لم يظهر أي أثر لهذه اللثغة، أو أنها أعاقته عن تفهيم مراده، بدءًا من وجوده في أرض مصر حتى هجرته إلى أرض مدين ثم

عودته رسولًا كريمًا داعيًا لله وحده، ثم حواراته مع قومه بعد هلاك الطاغية كل هذه الحوارات كانت فصيحة واضحة لم يعيب عليه أحد عدم فهمه بسبب هذه اللثغة، باستثناء قول فرعون معيبًا على موسى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢)

قال ابن كثير: " وهذا الذي قاله فرعون – لعنه الله – كَذِبٌ واختلاقٌ، وإنما حمله على الكفر والعناد، فهو ينظر إلى موسى بعين كافرة شقيّة ...، فإنه وإن كان أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله – عزّ وجلّ – أن يحلَّ عقدة لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: ٣٦)" (ابن كثير: ١٩٨٧)

لذا وصف موسى باللثغة في كلامه هي من روايات بني إسرائيل، والتي يشكّ فيها، لِما فيها من التنقص لكليم الله موسى، وإن عددناها جدلًا صحيحة فإنَّ الله قد أذهبها، والله أعلى وأعلم.

◎ الفوائد المستفادة من قصّة موسى عليه السلام:

١- هل يُرى الله تعالى في الدنيا؟

اتفق العلماء على أنّ الله تعالى لا يَرى أحدٌ – سواء أكان مؤمنًا أو كافرًا بعين رأسه – حتى يموت؛ لذا لمّا طلب كليمه موسى – عليه السلام – ذلك قال الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ (الأعراف:**١٤٣**) أي: في هذه الحياة الدنيا.

ويستثنى من ذلك رؤية محمد – صلى الله عليه وسلم – لربه ليلة الإسراء والمعراج، فقد ذكر فريق من الصحابة والعلماء أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رأه في هذه الليلة. (١)

هل يُرى الله في الآخرة؟

نعم، يُرى الله في الآخرة روية عامة وخاصة، فالرؤية العامة: رؤية الناس لله تعالى وهم في عرصات يوم القيامة، فيراه المسلمون برهم وفاجرهم، مؤمنهم ومنافقهم، ويراه أهل الكتاب، وتكون هذه الرؤية رؤية فرح وسرور للمؤمنين الطائعين، بينما يراه غيرهم رؤية اختبار وامتحان.

فعن أبي سعيد الخدري قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارورن في الشمس ليس دونها سحاب؟ قال: قلنا: لا فقال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ فقال: قلنا: لا، قال: "فإنكم ترون ربكم – عز وجل – كذلك يوم القيامة. "

(رواه الأمام أحمد برقم: (١١٠٦٩)

(١) قال الشنقيطي: " اختلف العلماء هل رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ربه ليلة الإسراء بعين رأسه أو لا؟ فقال ابن عباس وغيره: رآه بعين رأسه، وقالت عائشة وغيرها: لم يره. وهو خلاف مشهور بين أهل العلم معروف." (محمد بيومي: ١٩٩٩)

قال صالح فوزان: " يعني لا تزدحمون على رؤية الله عز وجل؛ لأن كل واحد يرى الرب وهو في مكانه من غير زحام كما أن الناس يرون الشمس والقمر من غير زحام؛ لأن العادة إذا كان الشيء في الأرض، وخفي يزدحمون على رؤيته، ولكن إذا كان الشيء مرتفعًا كالشمس والقمر، فإنهم لا يزدحمون على رؤيته، كل يراه في مكانه، إذا كان هذا في المخلوق الشمس والقمر، فكيف في الخالق سبحانه وتعالى؟" (صالح فوزان: ٢٠٠١). **وقوله صلى الله عليه وسلم: " فإنكم ترون ربكم – عز وجل – كذلك يوم القيامة**" ليس فيها تشبيه لله بالشمس أو القمر، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يشبه هنا الرؤية بالرؤية، أي يشبه صلى الله عليه وسلم رؤية الله في الآخرة بلا زحام برؤية الشمس أو القمر في الدنيا بلا زحام.

ويُرى سبحانه رؤية خاصة يوم القيامة، قال ابن خزيمة: " وذلك بعد دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيخصُّ أولياءه المؤمنين برؤية خاصة، ويحجب جميع أعدائه عن النظر إليه من مشرك، وكافر، ومنافق، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥)" (ابن خزيمة: ٢٠٠٢)

وقد يُستشكل كيف نرى الله في الآخرة، وسبحانه يقول: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ (الأعراف:١٤٣)، ويقول: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)

قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ (الأعراف:١٤٣) لا ينفي رؤية الله في الآخرة؛ لئن النفي المذكور في الآية يفيد امتناع رؤية الله في الدنيا، قال هراس: " فإن الله – عز وجل – لم يقل لموسى – عليه السلام – إني لا أُرى أو لا يمكن رؤيتي، كما إنه علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلي، هو أمر ممكن في ذاته، ولو كانت الرؤية ممتنعة في ذاتها لما طلبها موسى عليه السلام، فلا شكَّ أنه أعلم بما يجب لله، وما يجوز، وما يُمتنع عليه." (محمد هراس)

أما قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) لا يدل كذلك على امتناع رؤيته في الآخرة؛ لئن الإدراك شيء والرؤية شيء آخر، فإننا نقول نرى السماء ولا ندركها أي لا نحيط بها، فمعنى الإدراك الإحاطة، والآية تنفي الإحاطة ولم تنف الرؤية والله أعلم.

٢- من أعظم نعم الله على عباده الثبات عند المقلقات والملمات، ومَنْ أنعم الله عليه بهذه النعمة، فإنه سيكون صائب القول، ونافذ الفكر، وصحيح الفعل، وأمّا مَنْ حُرِمَ منها فقلقه وروعه سيذهب فكره، ويذهل عقله، فتصبح أقواله وأفعاله خبط عشواء، والمتأمل في قصة موسى تجد الثبات كان له قرين؛ لئن الله أنعم عليه بهذه النعمة، فلا عجب أن تأتي أقواله صائبة وأفعاله صحيحة.

٣- يجوز للمرأة أن تخرج لقضاء حوائجها، وتكليم الرجال، وذلك إذا انتفى المحذور ألا هو الخضوع بالقول أي ميوعته، وخضوع المرأة

بالقول هو: تلذذها بالحديث مع الرجال، فتجعل صوتها رَخيمًا، ولهجتها مشوقة، وحديثها مُتكسرًا، فنهى القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ (الأحزاب: ٣٢)

قال ابن كثير: " هذا أدب أمر الله به نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – ونساء الأمة تبعًا في ذلك." (خالد الحازمي: ١٤٢٥ هـ)، وتأمل خطاب ابنة شعيب لموسى: ﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ (القصص: ٢٥) ألا تلحظ فيه نبرة قوية محتشمة؟!

٤- يجوز للمرأة أن تعمل، فقد عملت أم موسى كمرضع، وعملت ابنتا شعيب في رعي ماشية أبيهما، وقد ثبت عن نساء المسلمين أنهن كن يعملن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن يجب أن تتوفر في عمل المرأة شروط، منها:

- ألا يضيع به دورها الأساسي كأمّ وزوجة تراعي شؤون بيتها.
- لا يصح أن تمارس المرأة عملًا يقدح في أنوثتها، ويهين كرامتها، ويخدش أخلاقها، ويخرم مروءتها.

- التزامها أثناء عملها بالضوابط الشرعية، نحو: عدم التبرج، البعد عن الخلو بالرجال، وغير ذلك.

٥- قال السعدي: " إنّ الله كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه، ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:٢٤)؛ لما في ذلك إظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد." (عبد الرحمن السعدي :٢٠٠٢)

٦- الحياء خلق الإسلام، ورأس مكارم الأخلاق، والحياء يحمل صاحبه على ترك القبائح والرذائل، وقد اختصَّ الله تعالى به الإنسان، ليرتدع به عمّا تَنْزع إليه نفسه من الرذائل؛ لئلا يكون كالبهيمة التي تهجم على كل ما تشتهيه دون حياء.

قال ابن القيم: " الحياء من أفضل الأخلاق، بل هو خاصة الإنسانية، فمَنْ لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم، كما إنه ليس معه من الخير شيء." (محمد المقدم: ٢٠٠٧)

وقد أحسن أبو تمام حينما قال:

إذا لمْ تَخشَ عـاقِبـةَ الليالي * * * ولمْ تَستَحي فَافْعَلْ ما تَشـاءُ
فَلا واللهِ ما في العَـيشِ خَيرٌ * * * ولا الـدُّنيا إذا ذَهَـبَ الحَياءُ
يَعـيشُ المَرْءُ ما اسْتَحيا بِخَيرٍ * * * وَيَبْـقى العودُ ما بَقِيَ اللِحاءُ

تقول فاطمة نصيف: " إذا كان الحياء في الرجل جميلًا، فهو في المرأة أجمل، وإذا كان الحياء في الرجل فضيلة، فهو في المرأة أفضل؛ لأنه يزيدها زينة وبهاء، ويجعلها محبوبة مرغوبة، فسمة الخير في المرأة الحياء، وسمة الشر فيها القِحّة، فالحياء حامي الفضيلة اليقظ، وحارسها الامين، الذي لا يسمح لكائن أن ينتهك حرمتها، أو يعتدي على ساحتها." (محمد المقدم: ٢٠٠٧)

٧- دلّ حديث موسى مع ابنتي شعيب على مدى حيائه، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ (القصص: ٢٣) فلم يزد على ذلك، فلم يسألهما عن اسميهما، ولا عن اسم أبيهما، وعمّا إذا كانت الماشية ملكًا لأبيهما، أو له شركاء، وعمّا كانتا أو إحداهما متزوجة كما يفعل بعض الناس اليوم، ويعدونه من مزايا التحضر والتكيف الاجتماعي.

وكذلك التزمت ابنتي شعيب نفس الأدب إذ كان جوابهما على مستوى السؤال، مستوفيًا البيان في عبارة موجزة مانعة من استمرار الحديث بلا داع ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا

شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ (القصص: ٢٣)، فبذلك أسدلتا الستار عن استمرار الحديث، ولم تسأله كلتاهما أو إحداهما عن حياته الماضية، وعمّا إذا كان متزوجًا أو غير متزوج.

٨- الابتعاد عن الاختلاط بين النساء والرجال أمر لازم ضروري؛ لمّا له من أضرار ومفاسد نفسية واجتماعية، ودلالة ذلك ابتعاد ابنتي شعيب عن الناس وتأخرهما في السقاء حتى ينتهي الرجال، فلا تختلطان بهم.

٩- قوله صلى الله عليه وسلم: "**ما بعث الله نبيًا إلا ورعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة.**"

والحكمة من رعي الأنبياء الغنم لتأهيلهم ليقودوا الأمم؛ لئن رعي الغنم يتيح لصاحبه **عدة خصال تربوية منها:**

أ- **الصبر:** " فالراعي يخرج لرعيه من طلوع الشمس إلى غروبها؛ نظرًا لبطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر." (علي الصلابي: ٢٠٠١)

ب- **التواضع:** " إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها، والنوم بالقرب منها، وربما أصابه من ذلك رذاذ بولها...، فلا يتضجر من هذا، ومع

المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء." (علي الصلابي: ٢٠٠١)

ج- **الشجاعة:** " فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلابدَّ أن يكون على جانب كبير من الشجاعة، تؤهله لمواجهة الوحوش، ومنعها من افتراس أغنامه."

(علي الصلابي: ٢٠٠١)

د- **الرحمة والعطف:** إنَّ من عمل الراعي مساعدة غنمه إن تعرضت لبأس من مرض أو كسر، فَمَنْ يرحم الحيوان البهيم يكون أرحم بالإنسان الفهيم.

هـ- **حب الكسب من عرق الجبين:** الله تعالى قادر على أن يرزق موسى وغيره من الأنبياء بدون عمل، ولكن عملهم هذا تربية لهم ولأتباعه للأكل من عمل أيديهم، وعرق جبينهم، ومهنة الرعي من كسب اليد.

ولماذا اختيرت الغنم دون الإبل والبقر بالذات ليقوم الأنبياء برعيها؟

قال محمد بن العثيمين: " واختيرت الغنم؛ لئنَّ صاحب الغنم متصف بالسكينة والهدوء والاطمئنان بخلاف صاحب الإبل، فالإبل أصحابها في الغالب عندهم شدة وغلظة؛ لئنَّ الإبل كذلك فيها الشدة والغلاظة، فلهذا اختار سبحانه وتعالى لرسله أن يرعوا الغنم، حتى يتعودوا ويتمرنوا على رعاية الخلق." (محمد بن العثيمين:٢٠٠١)

وقد علل بعض العلماء سبب الوضوء عقب أكل الإبل دون الغنم لتلك العلة والله أعلم.

ولئنَّ الغنم أضعف من غيرها، ومع ذلك تحتاج لرعاية أكثر؛ ولئنَّ الإبل والبقر يمكن ربطها، بينما الغنم غير ذلك، وبالتالي رعي الغنم يؤدي الدور المطلوب منه بفاعلية.

قال ابن حجر: " وفي ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك يعد – إن عُلم كونه أكرم الخلق على الله – ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء." (ابن حجر: ٢٠٠١)

١٠– قال السعدي: " من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخُلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (القصص: ٢٧)" (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

١١– قول مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨) يذكرنا بأبي بكر الصديق، فعن عروة بن الزبير قال: " سألت ابن عمرو بن العاص بأنّ يخبرني بأشد

شيء صنعه المشركون بالنبي – صلى الله عليه وسلم – فقال بينما النبي – صلى الله عليه وسلم – يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (غافر: ٢٨)" (ابن كثير:٢٠٠٢)

قال الصلابي: " وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقد قام خطيبًا، وقال: " يا أيها الناس من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما أنا ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عريشًا فقلنا: من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لئلا يهوي عليه أحد من المشركين؟

فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يهوي إليه أحد إلا أهوي إليه، فهذا أشجع الناس وقال " لقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخذته قريش فهذا يحادده، وهذا يتلتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويجاهد هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، ثم رفع علي بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أناشدكم الله أمؤمن آل فرعون خيرًا أم هو؟

فسكت القوم فقال علي: فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، وذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه." (علي الصلابي:٢٠٠٨)

١٣- الأمم المستذلة مهما بلغ بها الضعف والخوار لا ينبغي لها أن يسيطر عليها الخنوع للظلم والرضى به لاسيما إن كانوا أصحاب حق وإيمان، والأمة الإسلامية اليوم هي صاحبة الحق والإيمان، فلا يصح أن تقبع أسيرة لحياة المذلة والمهانة، فيجب على أفرادها وحكامها السعي للتمكين في الأرض، ولا تظنّ أن يتأتى هذا التمكين بلا تغيير في واقعها المرير، من أفكار سلبية هدامة، وأخلاق مهترئة سيئة، وأحلام ضحلة بدائية، فحتى يأتي النصر لا بد من تغيير هذا الواقع المرير.

١٤- قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) يذكرنا بأصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - وما قالوه يوم بدر فلما استشارهم - صلى الله عليه وسلم - في الذهاب إلى النفير، تحدث الصديق وأحسن، وتحدث عمر وغيره من المهاجرين وأحسنوا، ثم لما أعاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - السؤال، وقال: " **أشيروا علي** "، ففطن سعد بن معاذ أن الرسول يريد أن يعرف رأي الأنصار

فقال: " كأنك تعرض بنا يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، وصدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقول سعد ونَشَّطَه ذلك." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

ومن المقالات الخالدة مقالة المقداد بن الأسود: " يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وبموازنة سريعة بين الموقفين ندرك لِمَ حُرِمَ بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة أربعين سنة حتى دخلها يوشع بن نون بأولاد هؤلاء؟! بينما حاز أصحاب محمد شرف فتح مكة، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

١٥- الأدب مع الله صفة أوليائه الصالحين وأصفيائه المقربين، فالخضر عندما تحدث عن الإرادة في حادثتي السفينة والغلام أسند الإرادة إلى نفسه قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (الكهف: ٧٩)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (الكهف: ٨١)، وعندما تحدث عن الإرادة في حادثة

الغلامين اليتيمين وجدارهما أسند الإرادة إلى الله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢)، مع أن القصة واحدة والكل بقضاء الله وقدره؛ وذلك لئن الشر لا ينسب إلى الله وإن كان بتقديره وأمره أدبًا مع الله وأما الخير فينسب إليه.

وفي قصة الخضر نتعلم منها أدبًا آخر، وهو نسب الفضل لله، حيث نسب ما فعله إلى أمر الله ووحيه، وليس من اجتهاده أو من فراسته، ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ (الكهف: ٨٢)

١٦- صناعة الداعي من شأنها الاتصال بنفوس من يخاطبهم والقرب من قلوبهم، والناس طرائق قِدد منهم القوي والضعيف، والعزيز والوضيع، والغني والفقير، ولكل صنف من هؤلاء أحوال تقتضي نوعًا من الخطاب لا تقتضيه أحوال الأصناف الأخرى، والداعي النابه هو الذي يتلمس ما يناسب الجماعة التي يدعوها، ويعالجها بأنجع دواء لها؛ ليستقيم له الطريق ويصل إلى غرضه.

وموسى - عليه السلام - ضرب المثل الأعلى في ذلك، ويظهر هذا جليًا في دعوته لفرعون وملئه، وفي حواراته مع بني إسرائيل.

وقوم قارون انتهجوا نفس النهج في دعوتهم قارون، فقارون الغني – كجميع الأغنياء – لا يُرضي كبرياءه إلا كلامٌ من نوع خاص مثل: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧)

فكانت دعوتهم له دعوة حكيمة متزنة تحضه على الإحسان، ولا تلغي استمتاعه بالحياة وزينتها، ومثل تلك الدعوة يرضى بها الأغنياء مثل قارون، ورفض قارون لدعوتهم ليس لخطأ ذلك النهج، وإنما لخبث طبعه وتكبره.

١٧- الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا من مأكل ومشرب وملبس أو غير ذلك لا تمنعه أي شريعة سماوية، بل إظهار النعمة بغير إسراف ولا مخيلة أمر مطلوب دينيًا، فقد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – الأحوص أن يرى أثر ماله فعن أبي الأحوص عن أبيه قال: دخلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرآني سيء الهيئة **فقال صلى الله عليه وسلم: هل لك من شيء؟** قال: نعم من كل المال قد أتاني الله، **فقال: إذا كان لك مال فلير عليك.**" (رواه النسائي)

وليس معنى ذلك الإسراف في هذا الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا، فعن أبي سعيد الخدري، **أن رسول الله – صلى الله عليه**

وسلم – قام على المنبر فقال: "إنما أخشى عليكم من بعدي، ما يفتح عليكم من بركات الأرض"...، فقام رجل فقال: يا رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟ (يعني مما يفتح علينا من الغنائم والأموال خير، وهل يأتي هذا الخير بالشر؟) فسكت عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – قلنا: يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير، ثم إنه مسح وجهه الرحضاء (العرق)، **فقال: أين السائل آنفًا؟** (وكأنه حمده)، **إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإن ممّا يُنْبِتُ الربيع ما يقتل حَبَطًا، أو يُلِمُّ إلا آكلة الخضر، كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها، استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت** (أي: عادت فأكلت)، **وإن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المال لمن أخذه بحقه فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة."** [(١)] (رواه البخاري برقم: (١٤٢٧)، ومسلم برقم: (١٢١))

" فحاصل هذا الحديث الشريف: أنّ المال قد يكون سببًا في دمار صاحبه وهلاكه في الآخرة، وذلك إذا صرف في المعاصي، وتوصل به إلى الشهوات النفسانية، مع أن المال خير، فينبغي أن

---

(١) الحَبَط: أن تأكل الدابة، حتى تنتفخ بطنها وتموت بسبب كثرة أكلها، ويُلِمَ: يقترب من الهلاك، وثلطث: تغوطت غائطًا رقيقًا.

(قاسم بن صلاح الدين: ٢٠٠٢)

يتوصل به إلى مرضاة الله عز وجل." (قاسم بن صلاح الدين: ٢٠٠٢)

فعلم مِمّا تقرر أنّ المال في نفسه ليس خيرًا ولا شرًا، وإنما الخير والشر في نفس الرجل، فإن أصرفه في الخير كان خيرًا، وإن أصرفه في الشرّ كان شرًّا له، **وقال صلى الله عليه وسلم: تعس عبد الدنيا، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة."** (رواه ابن ماجه برقم: (٤١٣٥،٤١٣٦)) (قاسم بن صلاح الدين: ٢٠٠٢)

وهذا دعاء منه – صلى الله عليه وسلم – على مَنْ أشغله جمع المال من حلّه وحرامه عن آخرته.

ولا يُظنَّ أن الإسلام دين يدعو إلى الفقر وترك العمل والبلادة، فمن قال: " **تعس عبد الدنيا، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة.**" هو هو من **قال: " اليد العليا خير من اليد السفلى."** (رواه البخاري برقم: (١٤٢٧))

وقد استعاذ الرسول – صلى الله عليه – من الفقر، وروي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه قال: الفقر الموت الأكبر.

فالإسلام لم يذمّ المال وجمعه على إطلاقه، وإنما ذمّ من صار المال كل همه، وحرص كل الحرص على جمعه من حلاله وحرامه، ورَغِبَ فيه حتى صار خادمه وعبده، وصار به مختالاً فخورًا.

وبذلك نفهم **قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعل رزق آل محمد في الدنيا كِفافًا.**" (رواه مسلم في الزهد برقم: (١٩))

أي: ليس فقرًا يُنسي الطاعات لمّا في الفقر من جوع وعُري، ولا غنى يُطغي فيمنع عن طاعة الله.

١٨ - هل الغضب الذي تملك موسى عندما شاهد عبادة قومه للعجل مما يؤخذ عليه؟

الغضب أقسام:

١- " غضب يدفع المرء للشجاعة والغيرة على عورات المسلمين والأنفة من الرذائل والنقائص، فهذا محمود ومطلوب، ففي الصحيح عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه قال: كان النبي - صلى الله علبيه وسلم - أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفنا في وجهه." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

٢- فقدان الغضب وما يؤول إليه الفرد نتيجة ذلك من الجبن وعدم الغيرة والسكوت على الرذائل والذل والمهانة، فهذا منبوذ وغير محمود." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

٣- أن يتجاوز غضب الإنسان حدوده فيطفو على مكياله، وتنتفخ أوداجه فلا يتمالك نفسه، وتخرج البذاءة من لسانه، وتنطلق يده في غير موضعها الصحيح...، (وهذا غضب مذموم مرفوض) **قال صلى الله عليه وسلم: " ليس**

الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب." (خالد الحازمي: ١٤٢٥)

وغضب موسى كان من القسم الأول المحمود والمطلوب.

١٩- الورع الخالص عملة نادرة [١]، وأصحابه أقل من القليل، وهم الورعون في الجليل والحقير، فلا يصيبهم ما يصيب الكثيرون الذين يدعون الورع فيتحرزون في الأمور التافهة، ويتركون الأمور الجليلة.

قال ابن الجوزي: " رأيت كثيرًا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة، ولا يبالون بمعاملات الربا، ويتهجدون بالليل، ويرجئون الفريضة عن الوقت، في أشياء يطول ذكرها، من حفظ فروع وتضييع أصول." (ابن الجوزي: ١٩٩٩)

ومن هذا القبيل: تورع بني إسرائيل من حمل حُلي القبط، وعدم تورعهم من عبادة العجل!

---

(١) قال السمرقندي: الورع الخالص هو أن يكفّ (المسلم) بصره عن الحرام، ويكفّ لسانه عن الكذب والغيبة، ويكفّ جميع أعضائه وجميع جوارحه عن الحرام." (عبد الملك القاسم)

ومنه سؤال أهل العراق لابن عمر – رضى الله عنهما – إذا أصاب الثوب دم بعوضة فهل تصح الصلاة فيه؟!

فقال: " انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (يريد الحسين) وهم يسألون عن دم البعوضة." (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال ابن الجوزي: " فالله الله في تضيع الأصول، ومن إهمال سرح الهوى؛ فإنه إن أهملت ماشية نفشت في زروع التقى، وما مثل الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة، فإن استوثق منه ضابطه كفّه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه، فلم تقاوم السلسلة، فأفلت؟

على إن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط، فينبغي للعاقل أن يحذر شياطين الهوى، وأن يكون بصيرًا بما يقوى عليه من أعدائه، وبمن يقوى عليه."

(ابن الجوزي: ١٩٩٩)

٢٠– قال السعدي: " العلم الذي يُعلّمه الله للعبد نوعان:

أ– علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجده.

ب– علم إلهي لدني يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْما﴾ (الكهف: ٦٥)

فالخضر أُعطي من هذا النوع الحظ الأوفر." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

٢١-قال السعدي: " الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء فإنّ موسى – عليه السلام – أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصلاه هو والخضر أنه لا يسأله، ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدئ." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

فالعبرة في الدنيا بما في الظواهر، " ولا يجوز البحث عمّا في الباطن، وفي هذا التشريع سد للذرائع، ومنع الذين يحبون الانتقام والثأر والقتل بدعوى عدم صدق الباطن."

(مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

وفي نفس الوقت " إجراء الأحكام الإسلامية على ظواهر الناس وما يصدر منهم من أعمال، ولا تبرر النية الحسنة عدم إقامة الحدود والقصاص."

(مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

٢٢- قال الصايم: " يأتي الشيطان إلى المؤمن إذا أصيب في نفسه أو ماله أو ولده، ويقول له: إذا كنت على حق فلماذا تصاب بهذا الألم؟ دعك مما أنت فيه من صلاة وصوم وذكر وعبادة. فغيرك يعيش هنيًا مع أنه لا يصلي ولا يصوم ولا يعبد." (محمد الصايم)

ولو لمح قائل هذا الكلام أنَّ الذي ابتلاه العليم الحكيم!
لم يقل ذلك، ولم يبق له إلّا التسليم والاذعان لمّا خُفِيَ عليه من حكمة هذا الابتلاء!

وتأمّل حال الخضر وموسى – عليهما السلام – لمّا فعل الخضر أشياء تخرج عن المألوف والعادات أنكر موسى – عليه السلام – ذلك، ونسى إعلامه له ألّا يسأل فيما لا يعلمه من العواقب.

فإذا خُفيت مصلحة العواقب عن موسى – عليه السلام – مع مخلوق، فأولى أن يُخفى علينا كثير من حكم ابتلاء العليم الحكيم لنا!

قال ابن القيم: " وإنَّ من رحمته ابتلاءه، فمنع عباده عن كثير من شهواتهم بالابتلاء، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بهذا الابتلاء والامتحان، فلمّا ينغص عليه الدنيا لئلا يسكن إليها ولا يطمئن إليها، وليرغبه في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقه إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعه ليعطيه، وابتلاه ليعافيه، وأماته ليحيه." (ابن القيم بصرف: ٢٠٠٢)

وقال بعض الحكماء: " من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كان يفرحون بالمصائب نظرًا لثوابها." (محمد الصايم)

٢٣- " تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل طويلًا في سور كثيرة، بلغت خمسين سورة في المرحلة المكية، وفي المرحلة المدنية كان دور اليهود كبيرًا في محاولة إطفاء نور الله، والقضاء على دعوة الإسلام، وعلى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم تحظ ملة من الملل، ولا قوم من الأقوام، بالحديث عنهم بمثل ذلك الشمول، وهذه التفصيلات، ما حظى به اليهود، وحديث القرآن عنهم يتسم بمنهج دقيق، يتناسب مع المراحل الدعوية، التي مرت بها دعوة الإسلام، فقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى غفلة المشركين عن الحق، الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وعدم اكتراثهم به وبدعوته له نماذج بشرية تقدمتهم مثل عاد وثمود وفرعون وبني إسرائيل وقوم تبع وأصحاب الرس." (علي الصلابي:٢٠٠١)

o o o o

خاتمة الكتاب

أخذتْ حياةُ موسى الدعويّة منحيين رئيسين، الأوّل: دعوة الطاغية فرعون وملئه، والثاني: غرس التوحيد في قومه.

وكلا المنحيين أصعبُ من الآخر، فدعوة مَنْ نصّب نفسه إلهًا تعدُّ ضربًا من الصعوبة القاسية، أضف إلى ذلك ما تحمله من مخاطر محدقة بموسى وهارون ترجماها بقولهما: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ (طه: ٤٥)

وصَدَقَ ظنُّهما فأفرطَ عليهما وعلى من آمن بهما، وطغى طغيان الظالم المتناهي في الظلم بشهادة موسى وشعيب وربّ العالمين.

قال موسى عند فراره من بطش فرعون وملئه: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٢١)

وعندما قصَّ موسى خبرَهُ لشعيب، شهد شعيب عليهم – رغم عدم مخالطته لهم – أنهم ظالمون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٢٥)

وأمّا شهادةُ الكبير المتعال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ٤٠)

لذا لا عجبَ أن يكون جزاؤه وجنده العذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة، ففي الدنيا الغرق والذلّ ووراثة مُلكهم، وأمّا في الآخرة فهم من

أشدّ الناس عذابًا. قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ (غافر: ٤٥ ــ ٤٦)

ودعوةُ بني إسرائيل إلى التوحيد لم تكن سهلة ميسورة، لِما يتصف هؤلاء القوم به من الفسق واللجاج والقلوب القاسية، التي هي أشدُّ من الحجارة، فما وقع من بني إسرائيل مع نبيّهم موسى من بعد هلاك عدوّهم فرعون؛ لدليل على نفسيّة خبيثة ما ارْعَوت عمّا نُهت عنه، وتفنّنت في إلحاق الأذى به، ممّا جعل موسى يضج منهم: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ (الصف: ٥)

هذه النفسيّة الرديئة " يمكن أن نلخصها في جملة واحدة هي: الإحساس بالهوان." (عبد الحميد إبراهيم: ١٩٨٨)، فرفضهم دخول الأرض المقدّسة التي أمرهم الله بدخولها هو ترجمة لهذه العقدة، قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (المائدة: ٢٢)

فهذه العباراتُ توحي بالخور الشديد والضعف النفسي المتناهي، وعلى ما في العبارات السابقة من وهن شديد وعطب أكيد إلّا أنها لا

تقابل مع قولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ (المائدة: ٢٤)

" وعقدةُ إحساسهم بالهوان لا تدعهم أن يحيوا الحياة الكريمة؛ لذلك تمنّوا أن يستبدلوا الحياة الأدنى وما فيها من بَقْل وقِثاء بحياة الخير وما فيها من مسؤولية وخير معنوي، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ (البقرة: ٦١)"

(عبد الحميد ابراهيم: ١٩٨٨)

وعندما أمرهم موسى بأخذ التوراة والعمل بما فيها، لم تخضع نفوسُهم المريضة بالهوان إلّا تحت وقع التهديد وضغط القوّة، وهكذا النفوس الذليلة لا تقبل الأمر إلّا بعد تهديد شديد، ووعيد أكيد، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾

(الأعراف: ١٧١)

" وضعف نفوسهم يظهر متى ما أتيحت لهم فرصة، فإذا وقع إنسان تحت أيديهم، ولو كان من المقربين، فإن عقدهم تطفح، ويحاولون أن ينهشوه، ويصوّر هذا القَصص القرآني حين يذكر استفرادهم لهارون بعد غياب موسى، فحين استضعفوه لم يرحموه، فانظر إلى شكاية هارون لأخيه موسى من صنيع هؤلاء ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٠)."

(عبد الحميد إبراهيم: ١٩٨٨)

وتلكؤهم ولجاجهم في قصّة البقرة لأوضح دليل على نفسيّة هؤلاء القوم التي أَضْنَتْها العُقَدُ وعَقَدَها الذلُّ، وما قصّةُ الحجر ببعيد، وأليس هم الذين قالوا: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ (البقرة: ٥٥)

" والتاريخ يعيد نفسه! لا تصدق هذه الجملة على قوم بقدر ما تصدق على اليهود، فالجملة هنا أشبه بالقانون الحتمي الذي تكونه المشاهد المحسة، والتجارب المتكررة، هؤلاء القوم يعيدون أنفسهم على مرّ التاريخ، فكل جيل يأتي طبعة جديدة للجيل الذي سبقه لا يختلف عنه إلّا بمقدار ما تختلف الطبعة الجديدة لكتاب قديم، فقد تزيد بعض التفصيلات أو تتوسع في بعض الشروح، ولكن روح الكتاب ما زال كما هو، والهيكل العام لا يزال هو، ولا عجب فهم جنس مقفل لا يسمح للدماء الغريبة أن تتسلّل إليه؛ ولذلك انتقلت صفاته من جيل إلى جيل ،

دون أن يخالطها عنصر من غريب أو تتشربها ميزة من أجنبي." (عبد الحميد إبراهيم: ١٩٨٨)

وصدق الله: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾

(آل عمران: ١١٢)

الحاصل: أن موسى وأخاه هارون – عليهما السلام– خاضا معاركَ حامية الوطيس لغرس شجرتي التوحيد والحريّة في بني إسرائيل ومصر الفرعونيّة، وتجشّما مخاطر مهولة في سبيل نشر دعوتهما، والتي غيّرت الكثير من معالم المشهد الوثني في مصر وبني إسرائيل والدنيا بأسرها، ورسمت معالم حياة جديدة مملوءة بالعدل والخير والحريّة والوحدانيّة.

فجزى الله موسى وهارون – عليهما السلام – عنّا خير الجزاء.

قائمة المراجع:

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، بدون سنة نشر.

٢. أحمد بن عبد الله العماري الزهراني، تأملات قرآنية: من نبأ موسى وفرعون، مجلة معهد الإمام الشاطبي، العدد الأول، ١٤٢٧هـ.

٣. أحمد أمين: ضحى الإسلام، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢م.

٤. أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار مصر للطباعة، ٢٠٠٢م.

٥. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٦. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٧. الفخر الرازي: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي بيروت، بدون سنة نشر.

٨. خالد بن حامد الحازمي، مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، ١٤٢٥هـ.

٩. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١ هـ.

١٠.زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

١١.سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٨٦م.

١٢.شمس الدين ابن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، دار ابن رجب، ٢٠٠٢م.

١٣.عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي – الجزء الأول، نادي الأدب بالمنيا، ١٩٨٨م.

١٤. عبد الرحمن (ابن الجوزي)، صيد الخاطر، دار الحديث،١٩٩٩م.
١٥. عبد الرحمن حسن حبنكه، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، دار القلم، ١٩٩٦م.
١٦. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م.
١٧. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء فصول في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.
١٨. عبد الملك قاسم، لا تستوحش لهم الغبراء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
١٩. عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، دار المنارة، ٢٠١١م.
٢٠. صالح بن الفوزان، التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ٢٠١١ م.
٢١. علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠١م.
٢٢. علي محمد الصلابي، أبو بكر الصديق، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٧ م.
٢٣. قاسم بن صلاح الدين الحنبلي، السير والسلوك إلى ملك الملوك، دار الكتب العلمية،٢٠٠٢م.
٢٤. محمد الصايم، الوصايا العشر للوقاية من الجن والشياطين، دار الفضيلة، بدون سنة نشر.
٢٥. محمد بيومي، معجزة الإسراء والمعراج، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.
٢٦. محمد بن إسماعيل المقدم، فقه الحياء، دار ابن الجوزي،٢٠٠٧م.

٢٧. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد أصولها والأدوار التي مرت بها، مشاهير دعاتها، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٢٨. محمد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن، دار الصابوني، ١٩٩٩م.

٢٩. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، وبدون سنة نشر.

٣٠. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، بدون دار نشر، وبدون سنة نشر.

٣١. محمد بن اسحاق ين خزيمة، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، دار الحديث، ٢٠٠٢ م

٣٢. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لإحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٩٨٥ م

٣٣. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢ م.

٣٤. محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار البصيرة،٢٠٠١م.

٣٥. محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨ هـ.

٣٦. محمود بن خليفة الجاسم، السحر والإصابة بالعين في ضوء الكتاب والسنة، دار ابن حزم، ١٩٩٣م.

٣٧. محمود المصري، قَصص القرآن، دار التقوى،٢٠٠١ م.

٣٨. مجدي محمد الشهاوي، آيات موسى التسع، دار الطلائع، بدون سنة نشر.

٣٩. مصطفى سعيد الخن وآخرون، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م.

٤٠. مصطفى بن العدوي، الصحيح المسند في الأحاديث القدسية، مكتبة الإيمان،٢٠٠٢ م.